حسان بورقية

الدنيا هانية



قصص

أفريقيا الشرق

الدنيا هانية

المؤلف ـ حسان بورقية
عنوان الكتاب
الدنيا هانية
رقم الإيداع القانوني 1999 / 324
ردمك 9 -142 - 25 - 9981
أفريقيا الشرق ـ المغرب

حسان بورقية

الدنيا هانية

قصص

أفريقيا الشرق

الإهــــــداء

إلى

بيترا، صونيا،

المهدي ومحمد

طبع هذا الكتاب بدعم من وزارة الشؤون الثقافية

"الدنيا هانيه*": تشخيص الخراب الجميل

في هذه النصوص— القصص التي يفاجئنا بها الرسام حسان بورقية، نفحات عطر ربيعي منعشة. ليس فقط لأن علاقة الفنان باللغة هي علاقة ذات خصوصية وامتدادات، ولكن لأن بورقية قد متح من مُعاشرته للنصوص الفلسفية ذات الإبداعية الواضحة -خاصة عند نيتشه - ومن قراءاته المتنوعة التي تَنْضاف إلى تجربته وحساسيته لتؤَثث فضاءات هذه النصوص المثيرة والمُوحية...

لقد أحسستُ بنوع من التكامل بين هذه النصوص السردية التي تستوحي فضاءات بني ملال ومظاهر الحياة اليومية فيها، وتفاعل ذاكرة السارد مع صور الماضي والحاضر. ويمكن أن أبرز ثلاث ثيمات أظن أنها تتوزع هذه المجموعة المتكاملة:

أ - فضاء بني ملال في ماضيه القريب وفي تجليات الحاضر وما آل إليه من رمادية وركود: "حب وحرب"، "طريق القصيبة"،

ب - ذاكرة السارد الأسيانة وردود فعلها أمام ما يحسه من خراب وعزلة وسأم: "عصفور المسالخ"، "نشوة الإياب"، "شعرية الأرق"، "ساعات من سيرة..."

ج - صورة المرأة (قد تشمل المرأة المغربية) التي يحوّلها المجتمع المأزوم، المهتزّ، إلى "رغوة على الأرصفة": "بقايا امرأة"،

"رغوة الأرصفة"، "الدنيا هانية".

إلا أن هذا التقسيم يتلاشى عند القراءة لأن النصوص تنصهر وتغدو مجالاً لتظافر فضاءات بني ملال وفضاءات الذاكرة وما تلتقطه العين الساردة من مشاهد وشخوص أو تستحضره المخيّلة من نصوص وكلمات.

وعندما ألح على حضور الفضاء في هذه النصوص، فإنما أعني ما تُشيِّده مخيلة الكاتب رغم استيحائها لأمكنة وأحداث لها مرجعية معروفة. الفضاء، في هذه النصوص، هو ما يتولّد داخل الكلمات وعبرها، ويتنامى من خَلَلِ الوصف والسرد والنصوص الغائبة والحوار والتأملات، ليصبح مستقلاً، أي حاملاً لبُذُورِ رؤية قد لا يلتفت إليها مَنْ يعيش في نفس الفضاءات...

المستوى الآخر الذي يلحم هذه القصص، هو مستوى الكتابة والرؤية. في مجموع النصوص نُحس تَباعداً بين السارد وبين الحدث. وهو تباعد يسمح بتوفير "مسافة" جمالية وتخييلية تُحرر الذاكرة من متابعة التفاصيل في خطية مزعومة، وتتيح تمثُّلَ المخزون عبر الاستبطان والتأمل وإفساح المجال لصوت الذّات. بالفعل، تتنوّع طرائق السرد وضمائره (الغائب، المتكلم، المخاطب)، ويتراوح الشكل بين النّص المنساب، المتشظّي، والبنية القصصية المحكمة (مثلا: بقايا امرأة، الدنيا هانية) ولكن الوحدة قائمة من خلال اللغة الدقيقة، المتأنية، المكثفة، ومن خلال العين الرائية الواصفة وحضور صوت الذّات المتفاعلة. وقد يُخَيَّل إلينا أن حسان بورقية يُعوّض انسجام الألوان وحضور الأشياء المجرَّد في لوحاته، بانسجام الإيقاع الداخلي للُغة وبحضور النصوص المختَزَنة. كأن الرسام الذي شيَّد من مواد ترابيةَ ونباتية، نتوءات وألواناً تبرز "الشيء" في تجريديته وعَرامته، يلجأ إلى الكلمات ليقول ما وراء

"الشيء"، أي ذاك الذي يتأبّى عن الموضوعية المزعومة يُحرك الثاويَ في مسالك الذاكرة والملتصق بالذّات وغرابتها المقلقة (يظهر ذلك بوضوح في "شعرية الأرق"، "ساعات من سيرة..."،).

لا أستطيع، هنا، أن أقدم قراءة تفصيلية لهذه النصوص الثرية، ولكنني أكتفي بإشارات إلى أربعة نصوص-قصص تستوحي جرحا عميقا في الذات المغربية. النص الأول، هو "عصفور المسالخ" الذي يستحضر صورة طفل-تلميذ عندما كان جسوراً يحلّق خارج سِرْب زملائه، متمرداً على المواضعات، مقلقاً لمعلميه... ذلك التلميذ النابض بالحياة والتحدي يتربّص به رجال منحرفون ليغتصبوه في المسلخ القديم. ومن ثمّ انغرس الجرح عميقا في نفس التلميذ "الزّو" ليقوده إلى الانكسار ويُصادر منه الفرحةَ والجرأة. وعندما يلتقيه السارد، بعد عقود، يكون ذلك التلميذ قد تحوّل إلى رماد يُعمي وسط الهجير.

ثم هناك ثلاث قصص تستوحي وضعية المرأة المؤسية: "بقايا امرأة"، "رغوة الأرصفة"، "الدنيا هانيه". ثلاث فتيات مختلفات ولكنهن بمثابة تنويع على نفس الثيمة التي تتصل بالوضعية المزرية التي تواجه المرأة في مجتمعنا وهي تحاول أن تعيش وسط تحوُّل بنيات العائلة، وتفاقم البطالة والعزوبية واستمرار سيطرة الذكور المشيِّئين للمرأة. وأظن أن "بقايا امرأة" قصة ذات نكهة خاصة لأنها ترصد صورة المرأة من منظور جريء وغير مألوف. فالأمر يتعلق بفتاة تعيش في دار كبيرة، وعندما تتغيّب أمها يتضاعف خوفها وشعورها بالوحدة، فتتصل بصديق لها لأن حضوره يسعفها على تبديد السأم والأرق. ومن خلال الحديث بينهما، يتبين أن الفتاة تحلم بأن تصبح راقصة ولكنها عاجزة عن تحقيق حلمها، ولذلك تلجأ إلى الأغاني وإلى الكحول والحشيش؛ وفي غمرة التجربة، تتعلق بامرأة تحبُّها وتحرك الساكن بأعماقها، فلا يعود الرجال يعنون شيئاً لديْها. إلاّ أن أمها

تريدها أن تتزوج لتُنجب خلفاً... وهي حائرة، خائفة وحلمها مُؤجل، والأرق مقيم، وواقع كئيب يلفّ كل شيء ويبدو أقوى من كل شيء...

إن هذه القصص تكشف عن موهبة كاتب له حساسية متميزة قادرة على أن تَعجن اليوميّ المألوف بالتخييل المخصب المعتمد على الملاحظة والتأمل والنصوص الغائبة، وبذلك يُعطى لـ"الرسم بالكلمات" معناه الحقيقي، لأنه صادر عن مُبدع يمتح من المعينَيْن ويكابد التجربتيْن. ومن ثمّ يذوب الخاص والمحلي في أفق يتضوّع بنفحاتِ الألم الإنساني الآسر رغم وطأته.

هذه النصوص الجميلة التي يُقيم صاحبها في مدينة صغيرة "محيطية" تُذكرنا بما قاله الرسام ديبيفي Dubuffet : "ستتعلَّم أن تُحس بالراحة حيث الكائن المفتقر لليقين، يُضيء وينطفئ".

و"الدنيا هانية" تُسعفنا على أن نُضيء ذلك الخراب لنجعل منه شيئاً جميلاً في رحلتنا الحياتية.

محمد برادة

أيها الماشي، ليس هناك طريق . ماتشادو

حـــب وحـــرب

... ويحلّ مساء بعيد.

ثم تخلو الأحياء المتربة فيطيب السمر المفتعل البئيس بعد غروب خبا النهار فيه، لينغلق الرحم الذي قاء نهاراً، التعبَ وذيولَ الأيام العصيبة أخيرا، كجفن غادره السهاد بعد عراكٍ مرير.

الليل مليء بأنين مخلوقاته التي يخنقها النور، بحرّاسه الخفيّين الذين ينضدهم الصغار حسب المزاج والقدرة على الاختلاق؛ تروي عنهم الحكاياتُ المثبطة، القاطعة لكل شغب محتمل من الصغار.. فيخافون الظلمة ويستغيثون في صمت واسترسال.. صورٌ لا تطرد بسهولة.. مامّا غولة، بغلة القبور، يأجوج وماجوج، رحمة سيدي ربّي.. كلها بحر حالف في البرّاني وفي الصغار.. بابٌ خلف باب تغلق، هي الطمأنينة المؤقتة الوحيدة. كل الخارج شر، لا يمتد بحالٍ إلى الداخل، إلاّ خيالاً أو رهبة..

ينتهي النهار ليجلس كلٌّ إلى إرهاقه، يرنو إليه، يداريه، يحكي عنه، يهشه بحدث، بطارئ، بمألوف أو بغير مألوف.. الليل وليد الحكايات، كالعمرِ نسيان للألم وتذكره، ثم احتماء في ثنايا الظفر برقاد عميق كالرّدى.

عند كل عودة، في المساء، كان يحدّثها، متربا واليدان دَملَتَان بالأحجار والإسمنت، باحترام ظاهر يليق بتفانيها، كان يحدثها عن

رغبته في مغادرة الدار، الدار الكبيرة، وامتلاك "كانون" يؤم الأحلام والجراحات، الرخاء والضيقَ.. وأن يكون هناك راديو، راديو صغير، راديو "سيس"، يدوّخ النّفْسَ في زوبعة من الأغاني. كان ساعتها يحرك ركبتيه كأنه يستمع إليه الآن بسائر جوارحه، بكل أعضائه، فتُجَنّ ضلوعه.. يحس أن الكلام ينقصه ليعبّر أحسن.. يريد أن ينطلق، أن يطير.. شيء ما كان يكبر فيه ويعقد لسانه. وليتخلّص من عذابه وهبَ للسكون إمكانيات البوح كلها.. سكت كي يقول كلَّ شيء حوله، ظاهر وخفي، مالم يستطع هو قوله.. أحس أنه يقول أقلّ مما يجب، فوّض أمورَ الكلام والجواب وحركةَ ما خالط قلبه، للأشياء من حوله.. أحس بنفسه ضائعا، وأنه يريد الذهاب إلى حيثما كان يلزم أن يكونا.. هناك، سيسمو عن أية برودة حتى وإن نام قرب الموتى.

استأصل أنفه الوالغ في أريج القرفة والقرنفل الفوّاح من شعرها، طاقة الكلام، صبّرها في أقصى الدماغ. شُلّ. التهبت سحاياه. راوده إحساس بأنه كائن مرضي، لأنه وحيداً يعذَّب في هذا المنفى الداخلي الذي تردم فيه آلاف المنافي..

لو كان في بيتهما المحلوم به لقال لها الكثير.. مع الراحة يسترخي الكلام وينبسط.. أما في هذه الدار فلا تصمد الكبد الهشة. الراديو يا فاطمة، كان يقول لها، والكانون أفديهما، وأنت، بعمري.. بَرًّا عْليك.. فتُذَبّلُ عينٌ.. شقشقت فيه الأغاني هو قبل المَذياع. لن أعطي لأحد ثمن عرقي بعد فكٍّ أوحَيْلك.. فتخجل العين الأخرى ويتهاوى الجفن على أعلى الخد كرذاذ. قال ذلك وهو يرمق إلى البطن الذي راح ارتفاعه باديا.. مستغلا سبول الجفنين، سرى منهما دبيب منعش بين جلده وعظامه.

كان يكلمها جالسا إلى مائدة قصيرة القوائم، كسف لونها وكلّلتْ تقاعُدَها المساميرُ البارزة على وجهها.. مائدة كقلبٍ مهجور..

متظاهراً، وقد همدت فيه عواصف الأغاني، بهدوء المتيقن، المخطط لكل صروف الطريق ومفاجآتها.. هدوء يوقّعه حماس الولهان مرة مرة.. يداه لا تنفصل الواحدة عن الأخرى إلاّ لماما، عندما ينقل فتاتا إلى صحن الألمنيوم المتورّم، الفارغ، بحركة ساهية كأنه احتاج إليها ديكوراً في سياق هذه اللحظة القصيرة الآسنة. ثم تنظر إليه، إلى "زمانها" - كما تحب أن تناديه - إلى الذي خُلقت من أجله أخيرا، يعجبها فيه الفارس الذي يريد الذود عن عشيرته، الذي يرصد تفكيره كله وقواه الحية بأجمعها ليلقي بها زنبقات تحت أقدام الآتي الواعد، الذي كاد يبصره، وكادت هي تلمسه. سيكبر الولدان، الثالث آت وتشكيلة أخرى تتهيأ في بطن السر.. تضربه ضربة خفيفة من يمناها على كتفه الأيسر كأنها حدست فيم يفكر، فيشعر بشيء ما يغرس جذوره في الحياة من جديد، وتشيح هي بوجهها مائلة بانكسار خفيف.. يتابع هو حركة انحدار وجهها على الكتف الأيسر، ومع نور لامْبة يُمزّق وَشْمُ ذقنها، الرقيق، سكونَ بيوضتها المرمرية، كأنما شرب الوجهُ كل نور الأكوان فلاح الوشمُ أخاديد مسروقة من العتمة، منحفرة عميقا كشرخ سحيق بين السماء والأرض، كل كسوف العالم ممتص فيه.. ثم يعيد عنقها المسبول استدارته، ليتلوى، فيطير الوشم إلى عينيه، تباغته الرموش الداكنة الطويلة ويرى لأول مرة انفطار عنقها من بين كتفيها الصغيرين، كأنه في حلم يسترد أنفاسه، يأبى أن يستفيق، يحس بجنحيه يكتويان بنار اللاّمبة، بنار ثانية، لا أرضية، يسترد أنفاسه، تاركا قلبه هناك مضرّجا في زرقة العذاب، كان جميع جسده يغرق في تراب له عبق الزعفران. الموت لحظتها انتشاء.

كان يحفر عن هنيهة هنية يصالح فيها روحه، هنيهة صافية كالماء النمير الذي يشق ضفتيه بمحاذاة القرية شرقا وهو يتدحرج عبر تاغبالوتْ نْ حليمة.. أن يعيشا كصفصافتين، مثلا، في وئام تشد أواصره العروق الضاربة في الثرى، عميقا، مكتنفا بالبعاد عن العيون،

عيون الحسّاد، مجفّفي الرحمة من السماء وزرّاعي المخاوف والظنون... وأن ينمو الأطفال حولهما كاللبلاب المشاكس.. كالدوالي العنودة، ثم، ماذا بعد؟ أن يتصابى.. ألا يتصابى الناس لصغارهم؟

فكّر فيما سيروي لها —— مساء ـ وهو يدفع بالكرسيين الخشبيين العتيقين إلى ظل شجرة الخرنوب المنحَنية، ذات الخضرة الخاثرة، لا يبعدهما عن عتبة الباب إلاّ بخطوات معدودة. بالكاد سيشعر الكرسيان بالجسدين النحيفين للعجوزين.. ما تبقى من آخر الفرنسيين بالقصيبة. جفّا كما جفّت أوهامهما تقريبا.. وحده الماضي ما يزال قادراً على تحملهما، الماضي الذي كان يستحيل ردّه، مثلما تستحيل تسوية الخير والشر.. كان كلٌّ منهما يرفع الدعاء، من الأحشاء، لئلا يبقى أحدهما لعذاب الوحدة والذكرى.. العذاب الموحش القاسي الذي لن يفهمه غيرهما. أية خاتمة يمكن أن تكون لهذا "الحب" المجرجَر في هذا المكان القصي من العالم المجنون؟ أكان يلزم أن لا ينزل طائر الحكمة إلاّ في خريف العمر؟ ألم يكن من عين العقل أن يواري الترابُ الأصلُ هاتين الحفنتين ؟ ثم ماذا سيفعلان هناك بهذا المتبقي القصير من العمر؟ هل تخلّى عنهما الآخرون ـ من؟ وإذا عادا من سيذكرهما: لعنة مغامرة انتهت عند ضفاف الكوابيس رهاناً على قارة غُفْل، على مكان قصي ملغوم بالمكتنف المجهول، بأحلام أهله البسيطة، بزمنهم البطيء! لو عادت السنون إلى الوراء هل كانا سيدركان أنهما كانا يطاردان ما لا يُطارَد.. هل كانا سيفعلان!؟ هل كانا سيحسان بأن مرآة التاريخ التي يقدمها المؤرخون للشعوب فعلٌ مشوّه، وأن التاريخ فيهما أصبح مرضاً يلزم تشخيص أعراضه؟ وأن الوجود أمسى خطرا عندما تسمم الناس جميعا من بلى تاريخي؟ انتهى عهد "غوسال"؛ موسيقى الأكرديّون عند الظهيرة؛ زمن حانة "الهرِم المقدام" الريفية لـ"مادام دوسار"؛ تبدّد "هنري الرابع" إلاّ من أرواحه؛ لم تعد

هناك من حاجة إلى "بئر الوطن" حيث كانت تُساق طوابير وطنيّين ينهشهم ضريب الثلج الساهر ويلعب الماء البارد وحده بأحشائهم، وأنياب البرد الحديدية تمعن في تجميد الروح.. ما المعنى في كل ذلك؟ ما السبيل إلى الخروج من حلقة الوجود المدبّر؟ يوم عكّرت جيوش "أوبير" أحد أسواق العيد، في 1917 المشؤوم، "بالكُور"، أمان كائنات غرمْ لعْلام والقصبية، آخر قلعة في الجبل المنيع.. لن تنسى الساعات التي تفحّم فيها كل شيء، كيف تُنْسَى؟، حين اختلط التراب بالدم الحجر بالأرواح الدواب بالآدمي المأونة بالعظام أنين الجرحى بأصوات التائهين المأخوذين على حين غرة نزلت أعناق الخيل والبغال إلى الحصى استنفرت الحميرُ والمعيز والأيادي التائهة في ضباب الدخان السميك الممزوج بالتراب الرقيق نداء الثكالى بالعفر حين جرى الكل باتجاه ما نزل من السماء: "إيرومين" بالمظلة! "إيرومين"! كان مجرد كلب بمعطف جبال الألب. الخديعة: "إيرومين" صاحت الناس؛ كان مجرد كلب وأدرك البدو أنهم اقتيدوا حتما من حيث لا يلوون إلى اللّج المظلم.. سيُقطع حبلُ السرة، "إيرومين" والطائرات تمزق السماء من ثكنة تادلة العيون شاردة وطنين الموت يهدر ويغلق الآذان كصدى صوت ضاع في بئر بلا قرار ورائحة الموت كالكبريت تزكم الفضاء ولا نوافذ لهذا المطلق الجحيمي بدا الوجود ملعونا رماديا وكربونيا ثم اشتعل... نفر الدم من الأفواه وفتقت الآذان وتكوّمت الجثث في كل فج..

من دفن كل هؤلاء؟

ينظر من الخلف إلى بدلة العجوز الشارد، العتيقة، بلونها الداكن الذي هرب من ناحية الكتفين، يعرفها بأزرارها المتموجة الألوان، الأبيض، الرمادي والأسود.. تسقط عيناه إلى الحذاء الذي غدا واسعاً يشده العقبان فقط—كم يحرص هذا النصراني على بدلته! ـ ينقلهما إلى الشنگالة المشدودة بالشريط الملفوف حول قدميه، يحرك أصابعهما

بزهو من لا يفهم شيئا.. اندعك جسم المرأة المكتوم في ثوب طويل تخرطه مربعات بيضاء وزرقاء.. لم يهتم بقدميها. هل كانت جميلة؟ لم تكن.. كانت.. آخر الشعيرات العالقة بالرأسين تقاوم الاستئصال، عقابيل المرارة بادية: مشهد يؤكد أن روح الزمن تنكر قبليا ما لا يخضع لها.

كان حضورهما بهذا المشهد يزيد الصمت صمتا، كالقبر، ويمنح زقزقات العقاعق والشحارير قوة اختراقه كمدية. ماذا يقولان، بم يفكران؟ يحدقان الآن وكأنهما يبصران الفراغ، كأنهما يفكران بالجنة، يحاولان استرجاع حالة ما قبل الذاكرة، ما وراء الطفولة الأولى، وضعا أخلاقيا مغايرا للأفعال المستحيلة التي "فرضت" عليهما.. الآن، يتحملان وزن ذاكرتهما التي تزداد ثقلا مع مرّ القرون والأعوام، وتعود، ويعاد الشيء نفسه، لأن الزمن لا يمر ولكن يتراكم ويثقُل، يصبح حملا شبيهاً بالخطيئة، لا محتملا.

غارت عيونهما.. ذبلت.. أتكفيراً أم توبة أن يقرّرا المكوث هنا في استرسال وتير ولا متناه للنهارات؟ أم نكاية في الذي لفظهما هنا، و...نسيهما؟ يجلسان معاً ويبرحان المكان معاً؛ يخافان من أن يتيه أحدهما في السكون المرهق الثقيل الضاجّ بالأسئلة الثقيلة.. يحرك العجوز أحيانا يده المعروقة الزرقاء والمرتعشة، ليتهجّى أمنيتهما الأخيرة، كلما وقف لمعلّم كبّور إزاءه، أو كلما عاد من "تابنّايت".. الأمنية التي ما تزال وحدها تنتفض بالكادّ في القلب المنهوك.. يرجوان قضاء النّحْب معاً بعد أن ضيّعا شريط العمر في مرحلة بَصَمَتْها لعنة "الأقوياَء".. أن ينتهيا بلا عذاب، وينطفئ، كالسرّ، هذا الخيط الأخير من الروح. إذا كان لابدّ من التبدّد الرحيم، فالعزاء أن يكون كما في غفوة نوم..

ما توارى يومٌ إلاّ وهما يخرجان ويدخلان معاً إلى الموت.

لو كان بإمكان الإنسان، في هذه اللحظة ـ أو لحظة شبيهة ـ أن يهب نفسه لقداسة اختيار ما، لاختار حتما ما لا يخضع للزمن، لاختار أن يكون عبداً لإيريس، إلهة النسيان، طرداً للقلق والحيرة. وهذا العجوز يحتضر الآن، يحاول سدىً اختلاق وضع أخلاقي يخوِّل له إمكانية التعلل بأن الوجود في مجموعه مجرد صيغة استمرار لا ينقطع أبداً؛ وأمام هذا، يجبر نفسه على اختيار الموت حبلاً يختم به ما كان "حقيقته"، حتى يبدو "تاريخه" متسامحا، كلما شاء ذلك، يسوّي به التناقضات، ويمنح معنى ممكنا للصيرورة البشرية، هوذا المرض التاريخي الذي لم يتساءل يوماً عن القدر المسموح به من التاريخ..

عادا يوماً إلى البيت، في ظهيرة ساكنة تخرمها الأصوات الحادة للكائنات الصغيرة الطائرة. كانت آذان السماء يومها قد صخت بعدل مفرط. كان كل شيء قد تبدد، هنا أو هناك، وحملت الروح أحلامهما الأرضية.. هل كان بإمكان أية فرضية في التاريخ أن تغير شيئا مما حصل، أن تؤثر على مجرى الأشياء، أن تجنِّب الحسَّ العام للعصر تحمُّل أعراض مرض "الأقوياء" التاريخي، الذي كان يلزم أن يخلق له معنى، كأن ما جرى من أحداث غير كاف!؟

لم يحتفظ لمعلّم من لغز الذكرى سوى بمغزى دام، أن ذاك الشيء الذي كان يريد أن يعبّر عنه بالكلام، ذلك الانجذاب الذي جهل تحديده، بدأ يستوي بداخله كرغبة لا تهدأ، يؤججها تنامي نشوة الخروج من الدار الكبيرة، للتّنعم بأجواء ذات طعم الرحابة والطلاقة.. لأنه لا معنى للإهانات أمام ثمن الحرية الضرورية..

لم يكن يدري أن أمنية العجوز كانت كاللوثة، معدية؛ وأنها تسرّبت إلى جيوب قلبه النائية، لتشتعل ذات يوم، بعد سنوات، كدودة في شرنقة.

ذاك المساء عندما حدّث فاطمة، في وقت متأخر من الليل، بأمر العجوزين، بما أحسّ هو، وإن لم يفهم معظم الأشياء، ربّما كل الأشياء، فقط بأنه يرتبط بها بهذا الشكل، وأن الحياة من دونها عديمة الأصل.. كان في الحقيقة قد أقحمها طرفا في ذلك الميثاق السرّي الذي غزلته أهدابها الصامتة، عندما تعطلت كلمات بوحها هي، في القبو الذي كان الكلّ يهجع فيه..

كالكمإ كانت الدودة تنمو.

هل نسيَ القدرُ والموت وهما يستمعان لنداء العجوزين، ألاّ يغلقا باب السماء إلاّ بعد تهجّي الكلمات الأولى التي تعلّمها لصوغ صورة عن شيء جارح لم يعرف معناه.. ولا هي.

وحزنت الطريق كثيراً واكتأبت،

وفي الأخير ماتت من المرارة.

من التراث الشعبي لقبائل إفريقيا الوسطى.

طريق القصيبة

ها هي ذي تُفتّحُ، تنعرج، تسيل... تُملأ برائحة الزعتر والخزامى والشمس التي دخلت خدر دغل الجبل الغربي الشاهق لتذوب بعد لحظات في الظل الثقيل المطرز بأشجار السّرو والبلّوط الأسطورية، الكليبتوس والصنوبر الشاهق، التي فتحت رحم الأرض لتشرب نور الأديم دون مقاومة من الأحجار الرابضة على أرض الحصى الجارح، الأحجار الناسكة في محراب سرمدي.. نفس الهدير المدوّي للنهر الزاحف من الجنوب الذي يشق جوف الصمت آن اصطدامه بالصخور الثقيلة التي تحوّل اتجاهه إلى قشرة الأتربة الرخوة ليجرف ما يشاء من قش وروث وحطب وحصى، قبل أن يستوي وتسكن روحه الهائجة الراغية عند السهل وقد ذابت فيها سائر أخاديد السيول...

هل رنّ شيء ما - أيٌّ شيء - في قعر منسي من الذاكرة؟ شيء انغلق عليه القلب كنواة لا تنفلق إلاّ على مزيد من الحيرة والسرّ والاكتناف، أودعها القلب جميعا في ذرّة تائهة من ذرّات الذاكرة حبّةً طائشة في غيهب الأرض.. القلب الذي نحمله كما يحمل هو أسراره، القلب الذي يسبقنا إلى النبض، يجرفنا في تيار دقاته التي لا تكلّ كالموج، لكل واحدة إيقاعها الحميميّ في الزمن، تستدعي الواحدة الأخرى لتودعها في كفّ التبدّد، كما تهب الموجة الأخرى

لتعضّ على الرمل المقيم أبداً، أو تتعثر بالأحجار الناتئة الأزلية.. القلب الذي نلتقيه في منعطف ما من العمر ويتوارى آيباً ونحن نعبر الزمن، وفيّا لنفسه، ساهراً على الكلمات الطائرة من ذاكرتنا، التائهة فيه كالأشواق.. ما الذاكرة في العمق سوى الأشياء التي لا تنتهي، التي لا تكف عن العبور.. الأشياء التي دسّها الإنسان فيه واندست ثم ظلت تنتظر أمطار الأيام والسنوات...

كل شيء كان هنا. ما يزال. يكوّننا. يغمرنا. يحيط بنا. لا معنى للزمن عندما تقتحمنا الذاكرة، تليّننا، تلوينا، تخترقنا. هي هي، ولكن هل نحن كائنون على ما كنّا! نفسها خرابات الأيام الخوالي، ذاتها آثار الطفولة التي تركتنا وراءها عند الرحيل، عينها أزقة الحلم الطائشة، لم تتغير، وإن كانت من دوننا تبدو فارغة كقلب جوزة، لم يبق إلاّ الهيكل واقفا.. ألزاماً أن يمكث تواطؤاً ووهماً؟ أيّ اكتواء بلفح العراء يخذل الإنسان بغتة وهو يرمم خرابَ طفولةٍ ملجأً للحظة آتية، آنية، عندما تتمنّع أحجار الطفولة، في مشاكسة، محاورتَه؟! أليس كللا أن نعود دون اغتناء أو ظفر إلى الدروب التي طوتها الأيام، التي أفرغتها من روح الأقدام التي رعت القلب، والخطوات التي سافرت بالذاكرة... كم هي عديدة تلك الدروب وكم هي ملتوية وعصية على الفهم وقاسية في لحظتها، القصيرة أو المديدة، التي ما تزال تفتت الجسد كبرق في سماء معتمة.

في الأيام الأولى التي أدركت فيها أقدام الأطفال الثلاثة الصغيرة والهشة، في مرحٍ، الحاجةَ إلى تجاوز أثلام الحرث القريبة، التي تتوسطها شجيرات الإجاص القليلة، القصيرة، بضعة أمتار فقط عن الحدّ المصرح بالعبور إليه كدجاجات بليدة ترفل في أقرب المزابل بحثا عن الحبة المفقودة. تدحرجت الأقدام خجلى، كما لو أنها كانت تغامر في مجهول البلاد، مجهول تكون عقباه بلا قرار. كل خطوة كانت بمثابة

سفر، إيقاعٍ لا يستوي دون تنامي خطوات أخرى تتكامل كلها صدىً ونداءً، تتجاوب فيها الأقاصي والفجاج مثل أصوات الكون الغفل. خطواتٌ أبجديةٌ في الاقتراب من المكان، كشف لا يسكن، يتهجّى الأرض ورائحتها، ملامسةً تستطلع الخطواتُ الأرضَ لأول مرّة في برنامج العشرة المحمومة. تستسلم الأرضُ في هدوءٍ وحشٍ جُرح على التوّ وكتم صرخاته الحارّة في جوفه الدّيماسي العميق، مع كل خطوة تنبت في ضفيرة الإقدام المدوّخ.

الكلّ من هنا بدأ، ومن هنا عبر. من هنا كانت الصرخة الأولى التي جاسرت الحلم الوحشي الذي نُذرت له... وكانت بداية النّزيف المغامر الذي لم يكف عن تبذير ذاته في اصطياد معنىً ما للأشياء...

لم تكن من المهم بمكان، النهارَ ذاك، حكاية «عمي» موح الأدرد، الذي وصلوا إليه وقد انتهى من معالجة باب حانوته الصغير العتيق على التوّ، في زاوية الطريق المؤدية اليوم إلى الإعدادية، على المنعطف الأول يساراً، الباب التي تُفتح على موادّ معدودة، موضوعة كما اتفق على رفف عرجاء، تتسع بعضُ مربعاتها كأنها في تثاؤب. دكان، رغم صغره، لا يصل نور النهار إلى جوفه، فتظل موادّه سابحة في صلاة بوذية أزلية، لا تعود منها، شاردة إلى الأبد، نكاية في الأيادي والشاحنات التي حدّدت مصيرها في هذا القبو، وشهادة على مرحلة كساد، كأنها صنعت لزمن آخر، ولغير هؤلاء البدو الذين ينظرون إليها في سياق المشهد العام، دون فضول ظاهر أحيانا، وأخرى كأنها لا تعنيهم في شيء. هي هناك برغبة من العم موح، هو الأدرى بها من سواه، كأنه لم يجد شيئا يفعله بحياته غير فتح هذا الدكان لتصريف القليل اليومي ممّا يمكن تصريفه من مستهلكات عامة ـ كالشفرات وهو زبونها الذي لا يضاهى ـ ثم إغلاقه.. وهكذا، يوميا. من سيشتري منه في ذلك الهباء؟ مشروع حياة كاسد بالأساس كالحلويات التافهة التي

ترابض عند المدخل في قوارير زجاجية يحتلها الذباب ويتفرّد بالاستواء عليها... "عَفاشْ أخالي موحى شِيّي حَلاَوانْ باغُوس" نظر إليهم بحنق، كان غيضه مضاعفا، تفرّس في وجوه الثلاثة الغبيّة؛ هشّهم بحركة سريعة من كلتا يديه، بعد أن أخرج عينيه وكاد بياضهما يأتي على ما بهما من سواد: "نْصبّح غ فْربّي، دْ عَرقي، أرِ قيمي شانْ لْبيع وآشْرا". ينطّ. يلفظه الدكان كمعدة مقرحة. ينحني على الأرض كمن يريد أن يلتقط شيئا ليضرب به. يهز كلتا يديه إلى الأعلى كأنه يطرد سرب أرانب وهو يحوّل بصره بسرعة من اتجاه لآخر.. حركات مرفوقة بغمغمات مبهمة. وعندما يقيم وقفته، يستشيط ويُسْمِع بعضَ المارّة بلواه و "تَمارَة نْ تيماروين". يضم فتحتي الدكان إلى بعضهما، يغلق وينصرف ليغيّر الصباح، حتى يردّ شؤم لفظة "قرد" (باغوس). يلعن الكائنات وقدره البئيس. تْفُو! يقف متحسّراً على حافة النهار؛ وعلى مبعدة يمكن قياسها، هناك مكث بئيسا يسوّي قبّ جلبابه إلى الخلف، كأن الأرض انشقت وأخرجته نباتاً وحيداً في الخلاء، تخترقه الضربات العمياء لريح الجهات الأربع وسط الصبار الشائك الصامت... أو عندما أكملت الأقدام دورة تحليقها وأراحهم الفرار بعيون يسكنها الخوف والتشبث، إلى الطريق المعبّد انحداراً باتجاه الشمال، وكان عرقهم يتلألأ، يتدحرج ويتطاير، إلى حيث كان صاحب الكليبة "اعْريشَة" يدخل في رهانات مغامرة مع الناس المتناثرين حوله دون أدنى انسجام، على أن اعريشة تسمعه وتمتثل لأوامره، إذا قلتُ لها من هناك، من هناك، أو من هنا، من هنا، وهو يحذّر في الهواء اعريشة الصغيرة البلقاء، القصيرة القوائم، الحافية كحفنة رمل تشتعل في العراء الموشّى بجذوع أشجار الجوز الوارفة وأكوام الزقوم المتناثرة بين الحجر وأشجار البلوط في المرتفعات الممتدة عند مدخل القصيبة. في ذلك الوقت البارد العذب كان البدو يتضاحكون باستغراب، كأن الفتى ذو جنة.. تتطاير القهقهات الزاهية

مفصحة عن أنياب مذهّبة ومفضضة وسط وجوه أحرقتها البرودة.. تحاصره جلابيب الصوف القصيرة، الدّرنة، الدكناء، ووجوه أطفال سال مخاطها في توهج، مثلما تحاصره اعريشة التي انتهى مصيرها إلى هاته المأساة، تنظر إلى الأمة في محاولة عابثة لفهم ما يجري، ذاهلة العينين، تلتصق بساق الفتى ذات اليمين وذات الشمال، وهو يقسم على ما يقول مسرحاً عينيه في اعتزاز ساحر وفي يأسٍ كمين. وبسرعة، كغيمة مفاجئة، يمشط وجوه البدو، يعيد ترتيب الإشارات، يربت على رأس طفل هنا، يطبطب على كتف آخرٍ هناك، يقدم، يدبر، والكلام كالفشار يتطاير في الهواء، يطهّر البدوَ من خجلهم، يتناسق الجمع في هوينا سريان الحديث، كالكيف، لا يترك لهم مجالاً للتفكير أو التردد أو التراجع، الإغواء يقتضي اندفاع الكلام وفعل السحر لتشتيت التركيز، ليغرق الناس في علبة الطلاسم التي يفتحها رويداً رويداً دماغ المتكلم.. إذا صمت تناثر الجمع وانفض البدو كحفنة زيتون ليذوبوا في ساعات النهار المتشابهة. أمر اعريشة، كختمٍ لتتويج الغواية، أن لا تبرح مكانها، تئنّ استجداءً لرضاه والحيرة تسري بين حركة الذنب وارتخاء الأذنين... يشقّ الجمعَ بعد أن طوى أسفل سراويله "البْلو دولار"، وخرج فريداً بتعاليه، إنساناً من نوع آخر.. تخترقه النظرات التي يسير في بهوها مدجّجاً بالانتشاء. سار ما ينيف على المائتي متر في الطريق المسيج بظل أشجار الجوز، عند مفترق الطريق توقّف. اليمين ينزل إلى تاغزيرت، فم العنصر وبني ملال، الطريق التي تتضارب حولها الأرضُ الخصبة التي نبتت فيها دورٌ غريبة بناها معمّرون في ذلك الفجر الأوّل، الأرض التي يُحكى أن أقلية كانت تهرب منها، لا تريدها، وهي تتبعها، تسير وراءها في خضوع مراهقة ولهانة، أقلية نبذت الدنيا بعد أن ملكتْ كل شيء.. هراء! من يصدق هذا الكلام! طريق تشبه خيطا نحيفا يختزل الكونَ والناس في البحث عن شبق عابر.. على شط المزبلة العامرة اليوم، مزبلة ملاحم

البلاستيك، الجالوق وطنين الذباب. والشمال إلى تادلا وغَرْم لَعْلام... أشار على الناس بآتباعه، بقيت عريشه وحيدة وسط الطريق. هنا اليمين. هنا الشمال. ياكْ؟ ينظر إليها في استرسال كأنما بينهما خيط نوراني صوفي يوهّجه الصمتُ الملازم لكافة الألعاب الخارقة. تنظر هي إليه بعينين تحفنهما روحُه في الهنيهة الأخيرة قبل أن تلهب الطريق. صمتت الأفئدة صمتاً لا تكسره سوى وجوه خطفها التعجب. يصفّر، وكالسهم تَعْدو، يتناثر الإسفلت تحت بطنها شظايا. تعدو. تقترب، لإنهاء الفراق الصعب ومهزلة الطريق التي لا تكف شظياتها تتجمع أبديا. الطريق التي لا تشبه الطرق. يشير بسبابته الآمرة باتجاه العبور. تسير هي في غيره. كالوقت. كالناس: "سيري حتى مَنْ تَمّا". قالها بسخرية بهلواني في حركة سريعة من أنصاف أصابعه. شاح عن الوجوه وأتت عريشه تنطنط راقصة كسائر الذين لا يهمهم أن يخطئوا طرقهم.

لم يكن الأمر رثاءً يتزوّد به، ربما كان ذلك تبرّماً من النفس، استبسالاً في الوقت والخطو الذي لا يكف.

لمّا تفرق البدو في لحظة تجمع طرفيْها السخريةُ والتعجب، كانا هما ينْكبّان على الأرض مشياً باتجاه مجهول آخر، تبديد وقت آخر وطاقة أخرى ورهانات تالية في كفّ الصدفة. دون أن يلتفت كان مسبقا يغرق في ظمأ آخر، في زمن آخر، ولم يكن الصغار يخبرون أن فم الطريق كان ينفتح ليسيروا كما في الحياة، إلى مسافات أبعد، هم والزمن كحبل مجدول إلى حين.

في الحقيقة عريشه والقصيبة سيان: هي الآن، كما تعرف، خليط من جيل بكامله يدفن وجهه في كؤوس وزجاجات حامية، وسط ضوضاء حادّة ودخان تعلّق بتلابيب الجدران، كالطحلب، فندّاها. مروحة، صور، علقت بها إفرازات ذباب لاذ بالمكان من شتاءات

قاسية، يطل على هذا المحفل الذكوري الذي يجوبه بجلبة مدمّرة أطفال الدّيطايْ، عددهم أكثر من المدخنين. سجائر، جعة، اليوم العالمي للذكور! الجو راكد لارعشة فيه؛ فضاء قاتم كبريق محموم، قلوب أثقلتها حروب البؤس، التكرار، الغربة، معارك المستقبل والإحباطات، فولّت أدبارها إلى "هنري الرابع"، لتذرو هذه العذابات في مساء تاغْبالوت المتواري. الصيف، لبلاد، ما كايَنْ ما يَدًار، عاشت المرنيگا من القصيبة إلى ميلانو! الأثر الفني لسنوات مريرة! لنقرأ طالع ثقافة العصر المتخمة ووجودِ القيلولة: عيون محمّرة تطل من غبش جفون سوداء، بشَرات دكناء، لهجاتَ متباينة تتساقط منها بين الفينة والأخرى، مفردات أجنبية موقّعة بمرجعية أرقام السيارات الواقفة كالخيول عند باب الصالون، تحت الأشجار الهيفاء، بانتظار أن يسرح الليل ذراعيه تماماً على المكان، لتتفطر براعم شبق الأنابيب وتسيل إلى الدروب متسللةً من الشقوق والعتبات، تنسحب خلسة دون وقع لمباغتة لذة باردة، بثقل، بعياء فظيع يرثي الأيور: لا "قتُول" تؤم صلاة اللذة: "الكون حانة والخلق ندامى". مكان يدوّي دون مرح، تقصف فيه نظرات مترعة باللعنة، تربصات وعناقات بالجملة، طائرة في الهواء كتحايا خاسرين طيّبين. ترجّ حيوات متشظية لا عواصف فيها، صغرت من شدّة الحنين في ذلك المساء الذي كان يرقد على أحلامه في جوف المياه، إذ تدبّ فيه تموجات خفية وساكنة، تعيد الكائنات إلى عجينها الأول، متهالكة، تلتحم فيها، تتداخل، تتمطط، تتطاير الأصابع، ترتطم العيون لزجة كاللعاب بالسقف والحيطان، تتفتّق منها أظافر حادّة ملتوية، المروحة لا تكلّ من الدوران البطيء والراكد.. ألياف الدخان تتقاذف بشراسة.. لم يعد النور يأتي من أعلى، ما يزال هناك، لكنه لا يضيء شيئا، آهات آفلة وأصوات احتضار مخنوقة تمتصها شقوق وتجاويف الأحجار إلى غياهب الأرض، تنثني تحت الضوء الهارب، تسمع قهقهاتٌ قوية تنفر على إثرها الأحشاء من

الصدور، رائحة الجعة الحامية ترشح من الحمم السائلة الصفراء، تحاول هياكل مبتورة أن تستفيق، فتتداعى، خالطها الإسمنت والحصى وبقع الملاط، تعيد الكرة في محاولة يائسة تحمل بصمات جحيم العصر.. وحدها صورة الخيول الراكضة كانت ماتزال تتدحرج في مسمار..

في الخارج كان نور النهار يتوارى. آخر نَسَماته ترشق أوراق الصفصاف والزيتون بأنامل من فضة ونحاس. النور المطلّ من وراء الجبل الشرقي المائل، الجاثي أزليا، كحيوان خرافي، تلتصق به الدور الترابية المائلة، كصيصان ببطن الأم.. حزام من الروابي الكئيبة على المنحدر المسيّج بأشجار الكرّوش القصيرة.. عشرات الأعشاب تلتفّ بشقاوة كبيرة على بعضها البعض، والماء الواعد بالانهمار مايزال يغزل مؤامرته المكشوفة على التراب في الأزقة الطينية الحمراء المنحدرة.

سيظل وجهُ القصيبة غياباً وخصلاتِ صوت امتصها الليل الجارح.. كانت تتدحرج في الابتعاد، وصوتَ محرك شَاحنة "الطامسْ ترايْدر" كخيول سحرية تأكل الطريق باتجاه مدينة وجدة النائية.. ليل خارجٍ باقة الليالي، وشهوة الحبّات النائمة في أرضٍ توّجها غيرُ أهليها بيداء.. من سيسقط ثانية في رحم هذه البلقع العقيمة التي سمّتها البُروق عدماً؟ كان الموت معشوقا عرّيتِ له الصدور والنحور ولم تبدّدي كل المخاوف، فظل يحلّ بك منَ التواءاتك الغنجيّة، يهدم شهوتك، ذاكرتك وأشكالك، وبين كفّيه يعبر وجهك بلاداً أضاءتها الرعود. ها الليل الملحّ يأوي..

تلزم أرض صدئة وخافية في الليل ليُفَكّ السياجُ على الضياء البعيد فيك، يلزم للكلام جسدٌ حيٌّ وبراري تتناسل فيها أناشيدٌ خزامى، يلزم أن تخترقي مفازة الموت لتحييْ، ما الحضور سوى دمٍ أُريق!

أنت هذا الخراب المشروخ، هذي النكرةُ المضاعة في أرض الأزل الصامت. مباركٌ هذا الزواج البارد القاتم الذي، من تجاويفك، يحرك

حميميتنا، أنت أيتها المباغتَةُ في اختلاس الأسامي.. هو ذا صوتك يستسلم للنوم في صمتك العالي، العاري..

تائهة عند ضفة فجر، تحلمين بصيف ساديّ، يبخر ما فيك من لين، ما في عظامك من خور، أنت العارية كظهر مدية.. كم كنت محايدة، منتشاة حدّ الموت.. لا العيون عيونك الآن ولا الأُيادي أياديك، وهذا نهارٌ آخر يفضحك..

عَندما تنفتح الوردة، ينفتح عالمٌ معها..

ألْريك

وصايا العواء

هل كان العالم أكثر شساعة من تاغبالوت؟ ثم ماذا يرابض وراء هذا الجبل الصامت المخيف أبديا؟ كل مدّ بصر كان بستانا أخضر، تجري عبره الأبدية، كأن سائر الحيوانات والوحوش والطيور والحشرات والناس تعيد التوالد فيه أمام البرّاكة التي تظللها الدالية الصاعدة من يسار الباب إلى السقف، لتطلق أغصانها الملتوية بشكل عجيب، وأوراقها التي تغطي الدرجة الإسمنتية الواسعة وتحجب رؤية السماء، حائلة دون عبور أوراق الصفصاف الصفراء إلى الأرض.

لم يكن الصغار— أبناء لمعلّم لكبير الثلاثة —— يعرفون أين تبدأ الفصول ولا متى تنتهي. كانوا يحلمون ويمضون على التوالي. كانت هضبة الوادي التي يحضنها الجبل، تبدو منغلقة تماما: فهي دائمة الشمس، دائمة البرودة، دائمة الخضرة! مكان أسطوري، بلا صيرورة، طلّق المعالم والكائنات ونام... حتى الماء لا ينضب، لا يكف عن الجريان، هناك لا معنى للعطش أو الجدب. مخلوقاته الصغيرة منها والكبيرة، لا تكل من البزوغ، طرية غضة، تتلهى بما يزدحم ويجري في النهارات من الثواني. وتغمر رائحة تنفس الأرض والحطب المدخّن قمم أشجار الصفصاف الباسقة على شكل جدول دخان علوي في الشُعب، أو ضباب شفيف تخترقه نواصل شمس صباحية تفتّق خوالج زهيرات العلّيق المدادية ونوّارات الرتم الصفراء، وتُدَلّي ظفائر الدفلى قرمزية، ترعاها دون تماس، الوريقاتُ الخضراء المعروقة، وهي تشاكس القرندالي المنحني والقريب.

في الهضبة المواجهة كانوا يتسلقون الصخور التي تنبت بين مفالقها أعشاب الحلفاء النحيلة وسيقان السرخس، وهم يبحثون عن القيقبان العالق بالدّبق تحت ظلال الرند وتسّافت، البلوط، التي تجذبها حبال تالّوميتْ بعناد جميل إلى الأرض... هل تذكّروا أبدا رائحة الزعتر البلدي، القصير القامة، الخزامى والدوم.. ووريقات العنصل الرطيبة، المستفيقة من التراب كخلاصة تلقائية للحوار السري بين التراب والندى، يلوونه نكاية فيه فقط، ثم المحن التي كانوا يتكبدونها لاستخراج حباته العنودة، المختبئة أحيانا تحت الصخور التي علتها طحالب بيضاء وصفراء جافة.. ينسونها لحين يعكفون عليها ويرمون بالأحجار، عاليا، أغصان الخرنوب البرتقالي، المعسّل. لم تكن الفاكهة تسقط، كانت اليعاسيب تستنفر، «كأفراد قبيلة مسعورين، متعطشين للثأر، باغتوا القاتل وحيدا في العراء، ومزّقوا بأنيابهم وأظافرهم مجرى السكون». كانت الكافرة غافية لا تُرى، خَرَمت جباها ووجنات، أذرعا وصدورا وأعناقا شبه عارية، وعبثا حاولت الأصابع الصغيرة كشها. كان المكان يغلّف بالصراخ والعويل.. من كان يدري أن ثمة كائنات كاليعاسيب! تورّمت جلود، احمرت بقع وسالت أخرى. لم يكن ماء الساقية ليبرد ضراوة الألم، لا ولا الرماد أو التراب، يتعفر بهما الشعر وتبدو أماكن في الرأس كأنما هرّ منها وزال. يمسي الصغار كائنات لاسمات لها ولا أدمة.. كم لعنوا الخرنوب، وقبل انسحاق النهار في جوف المغيب يعودون للقصاص. ليالي وجوم طيّرت الأحلام ورفست اللعنة في الأفئدة.

تدفقت أيام بلا مرح، في البراكة التي تدبّر أمرها لمعلم في مارس 1956، براكة كالزنزانة، متران مربعان على قامة رجل وزيادة لا تعتبر، وسط تاغبالوت نْ حليمة الخامدة كمحارة، ثلاثة كيلومترات عن القصيبة باتجاه الجنوب الشرقي، على يمين أول الإلتواءات الجبلية. أواني معطوبة، ميدة، لمبة، فراش هزيل وصندوق أخضر متعدد الوظائف، سيطوي الصور، الحكايات، الرموز والتواريخ ببطنه إلى اليوم..

تخضر الدالية وتتلوى الوريقات حول الحبات الأولى من عناقيد العنب الأخضر، الحامض، حبات مازالت لم تكتنز بعد لحما يذكر.. بضعة عظام يتيمة تقمّطها القشرة الملساء، الواقية، المزّة، كما تلف الصيصان العارية، الصلعاء، في بيض الفراخ. تقاوم الضيق وتحلم بالغرق والحلول في لفيف عضلات الفاكهة. مقاومة تدوم أسابيع قبل أن يستوي العنقود بهيجا.

نمو بالكاد، عصامي تقريبا، لا تكترث الرياح بسيرته اليتيمة أو المطر أو الشمس بشكل ملحوظ. إذا جاء الفصل جاء. يكبر على هامشها، جنب الأيام التي نسته ويذكر هو بها. يحبو في ما اختزنته العروق من ماء في تجاويفها صمتا، فتمتص الفاكهة بطن الأرض، دمها الأمومي ورحيقها الخبيء بأفواه أبدا مفتوحة ودؤوبة على الظمأ.

لكن داليتهم لم يكتب لعنبها ذلك الفصل أن يكبر في هناء، وأن يسكّر كأقرانه، على الهوينا لمدته الطبيعية. طالته الأيادي وأخرجته جنينيا نيّئا قبل موعد الولادة والقدوم. تقاذفته الأفواه، رفسته الأرجل وعبثت به الأصابع. يعصر بلا اكتراث، رغما عنه وبدون رحمة. لابد أن يقيء ما بداخله تحت تعذيب الأضراس، شد الشفاه واللسان. يُتلمَّظ، يجفَّف ثم يلقي به، بما تبقّى منه، بجلوده وعظامه بعد أن باح ببعض أسراره، على الأرض قرب ثقوب النمل النبّاش الذي ما انفكوا يبحثون عن فيه لإرغامه على البلع.

يؤتى على قبائل من العناقيد، بأكملها، عن آخرها في غفلة من العالم، دون حماية دولية، في تلك النقطة الخالية النائية. ثم يخطط لغزوات أخرى عندما تستبد الحموضة بالأضراس والأمعاء، إذ تُتْرك جهاتٌ تالية من الدالية لمباغتات قريبة، للغد مثلا وبعد الظهيرة أنسب، مادام جدول أعمال الأيام التي تلت قضية اليعاسيب المشؤومة فارغة... كأن للحروب إيقاعها وتخمتها.

ضحك ملء فيه ذاك الفجر، لما فاجآه والقذى حول عينيه، عندما جفّف النور بإسفنجته ما تبقى من ظلام الليل. من أعلى الدالية كان يسخر منهما، بديا له صغيرين يسعيان تحت الشجرة، كبنات وردان، لم يجنيا إلا الهباء وراحا يتيهان. يضربان كفا بكف ويتبادلان النظرات، ينزلان اللعنة على التكاسل والخمول. استفاق مبكرا واجتث الحبيبات من السرّة. أكلها العفريت على ريق كأنها وصفت له في تميمة.. ترك الدالية صلعاء، استنفد معناها في صمت السحالي، في الكتمان وذهول الناس. خلياه تهيأ للوليمة من البارحة.

واحسرتاه! فتّشا عن القشور والنوى ولم يعثرا لها على أثر. أتى عليها إطلاقا، كأنه رفعها جميعا إلى قبة السماء.

سيعبر النهار متثاقلا، كأنه حاصر دواليبه.

عصرا، وآخر السحب الجافة تعبر المدى، باتجاه الجبل الشرقي التائه الأطراف، عندما استوى قرص الشمس وراء الجبل الأقصر المقابل، وفجّر، كما من الأرض، ظلا ثقيلا يحمل نذور رطوبة ليلية لا محتملة، ظلا هائجا توسط فجّ الجبلين عند الإلتقاء بالسلسلة الأم التي تلفظ ما بجوفها من ماء هدّار، لا يمل محاباة الضفتين.. انبطح الولد، أوسطهما، على الأرض متوجعا، لا الذي فيه يبرحه، ولا هو بمقدوره أن يفسح له.. أراد الخروج ولكن أمعاءه تكلّست، ثم عاندت... ودّ في الحين تلك، لو أخذته الأم وأجلسته، كما كانت تفعل به وهو حدث السن، على ملتقى القدمين بالساقين، فاسحة بين الرجلين الممدودتين مسافة قصيرة تتسع، كجلاّس، لاستقبال الردفين الصغيرين، في راحة، وهي تهدهده بنشيد موزون مسجوع، ينوّمه ويسكر ما في أحشائه ليتيسّر له الخروج الملعون، كأن الكلام المنشود كان ينسيه ملكية برازه الفردية، هذا البعض الأبدي العنود، فينساب والفتى في دردور ملائكي بين اليقظة والنوم، منسحرا يحل تارة في

فراشة، وأخرى في جْويشْت الجامع أو جرادة مالحة، بحسب مقام الأناشيد... يدغدغ، ينخطف ويهدًن.. انتشاء محفوف بمخاطر الانتشال والاحتيال على الأعماق وتنويمها.. تحسًر حتى بدا التبرّز في عينيه أسلوبا كالحب. لحظة خبيرة بأنها الوحيدة التي يتحرر فيه الكائن من الكبرياء، من الهوية، يضحي عالميا مع سكان الكوكب في هذا الواجب وطقوسه اليومية، إذ تبدًد الفوارقُ الطبقية والعنصرية وأوهام الآرية والسامية والشمال والجنوب ويتحد الناس في الاستجابة لضغط الأمعاء كما يتحدون حول مصاب بيئي يتهدد هذا الكوكب المعلق في الفراغ، المعرّض للتشتت في كل آن بلا اختلاف وجهات النظر، أو التأويلات القائمة على ثنائيات تافهة. إجماع نادر. فيه يتحرر المرء من كل شيء، يخلد لدواخله، يعود إلى الطبيعة، يتجرد من كل شيء، يستجيب بطفولة نادرة للأُخيًة التي لا يضيرها شروده أو خياله، بالعكس، لا تحب التوتر، ليبرالية، تريد أن تأتي في أبّهة شاعرية لها محفلها الخاص، مطمئنة، تعرف وفاءك وأنك لن تخونها أبدا.. هي المعشوقة الوحيدة في حياتك.. وعندما تحلّ لا يثيرها التملّك كثيرا، بل يريعها، يُقرفها.. لا تشمئز من مكان اللقاء، لشهيتها حد، إبنة لحظة فقط... لطرقاتها يلزم أن تجدك حاضرا مستعدا لميثاق اللذة، سواء أتت بموعد أم بدونه، المصيبة هي أن تتأخر أكثر من يوم، حالة، أكيد غير عادية.

في هذه وحدها تعتبر أنانية، جد أنانية. أما طول أو قصر بقائها، فالأمر متروك لصاحبها، لقدرته على القذف السريع لطحينه، وحتى إن شاء سهوا سها أو نوما نام.

لحظة حب كبير تشترط الإختلاء بالغريزة، تهريبها والتفرد بها وراء الأبواب، أو بعيدا في العراء، عن عيون المتلصصين والوشاة ومتسقطي العورات والطغام، حريم بامتياز. استقبلْها بعطر أو بدونه، بأية بدلة تشاء، كان البيت فارغا أم به ضيوف، كنت في العراء، في

القطار، في المقهى أو في الهواء.. تحس أحيانا أنها فضائحية، لا أخلاقية، تعقّد الأشياء شيئا ما.. هي كل هذه: أرض، جو، بحر.. شروطها بسيطة: تستهلك شيئا تافها وتروح.. تذكر الإنسان، هذه اللعينة المحبّوبة المتدلّعة، بعضويته، بترابه، وبالبساطة التي أفقدتها إياه الحداثة.. لم يكن من الضروري أن تقرأ فرويدا لتعرف هذا..

لكن هذه.. كانت عجوزا سمجة، بلا سحر، كلها نكد.. صديقة نحس، واحدة من عصابة شر، مفرطة الأنانية، تملكت الفتى حد زهاق الروح.

بكى وانتحب، نادى ربه ليحل عقدته، اشتد عليه الأمر.. محال أن تفك تعويذة وأن ينفع فقيه. إذا مكثت به الحال سيقضي نحبه، جُرّبت فيه مسهلات ومرهمات نباتية أحبط مفعولها. ضرب مؤخرته الصغيرة، مرات مع جذع شجرة، تمرغ في التراب وناح، لم يجد صبر مع الأخية، لن يتيسر له الخروج إلا بالعسكر والمدافع، هذه جلادة نفّذت فيه الحكم حالا بلا حق استئناف. شُبح على الأرض كحصير ملفوف، منزوع السراويل حد الركبتين. يبكي يريد رفعها ليحجب مؤخرته المتربة، كأنه يخشى اليعاسيب المحدقة من مكان ما، لا تصل الأصابع التي كادت تنفر من كفه الأيمن.. كأن رجولته ستداس وستنتهك حرمتُه وشرفه، يتواصل أنينه، يستنجد ويختفي الآخران وراء البراكة حتى لا يريا المشهد ولا يسمعاه. هو أخوهما بعد كل شيء. كان صوته احتضارا.. وكما «يدخل البدو أيديهم مدهونة بالسمن الحاد في البغلات، استعدادا للإستقبال، أو في شروج بقرات مترعة لاستخراج التخمة»، دُهن مغزل الصوف بزيت الزيوت ليضيع بعضه في تجويف الفتى الممزق، يبطء في البداية، ثم بسرعة هذه المرة، كأنه كلب مسعور، لقلب الأمعاء، لتشتيت الترسب والمستحثات العنبيّة، يتشنج الردفان الصغيران ويرتخيان. كل شيء إلا تلك!. تلح أصابعه على إنقاذ ما بقي من الممكن إنقاذه، وتهاوت خورا. جُنّ الولد، وكان

عود المغزل الرقيق واللين يغوص بتمامه في خاصرته. أوشك أن يغمى عليه، وقبل أن يجيء الفرج، كان الفتى قد شاهد القيامة وعاد.

لم تكن الأخية حنونة عليه، ولم تهبه تلك اللذة المعهودة إليها ليتملى بهبوطها، ليتأملها كالأعرابي الذي لوحظ أنه لا يتقن الخراءة، فكان رده تحديا مفحما: «بلى وأبيك إني بها لحاذق: أبعد المدر وأعد الحجر، وأستقبل الشيح وأستدبر الريح وأقعي إقعاء الظبي وأستوفز استيفاز الظليم».

خلف البراكة، على أصابع الجذور الرخوة، روت الأعماق ما أصابها. مكث ردحا من الزمن يتلذذُ كمأسور خرج على التو من غيهب رطب، يتلحّف بسربال الشمس الكاوي، صامتا يبدد الألم رويدا رويدا، يصالحه في استغراق تام، مقرفصا، تنسحب عينا رأسه إلى عينه الثالثة العوراء، السفلى، تارة بفضول وطورا بانتقام، يتمعن في الكمياء التي دوّخته وجنت عليه المآسي، يمعن النظر في العظام والقشور ويستمع للرنين الضيق، يتساءل ثم يرفع رأسه في استغراب مفرط. يتنعّم بهاته اللحظة الهنية، ودّ لو طالت عمرا، بالاسترخاء عينه الذي مازال جسده لم يعرف له نظيرا ولا سابقا.

بمحاذاة الزاوية اليمنى، وراء البراكة دائما، التفت يسارا، نقّل عينيه من دون عجالة على عدد الفطير الموهوب ليُتمه الحزين مع حلول الغسق وفلوله، يستمتع بالوصايا.. أحس بالبرودة تلفع ردفيه الملوثين بالتراب والعشب البليل. مدّ أصابعه إلى حجرة صغيرة في ترقّب، حجرة متربة، لختم ما كان المغزل الرقيق قد دشنه.رفع سراويله القصيرة، نظر باتجاهها مرة أخيرة، كأنها ممتلكات سرقها منه مجرى الزمن.

مرر يديه على بطنه للتأكد من أن أصل اللهيب قد تبدد، وجاء في خجل يختال كأن شيئا لم يقع، باسما يشظي المرارة، يواري عذابه

بنظرة تبدد الإحساس بالبؤس والخيبة. أحس بالظفر، طوى يديه وراءه، دار في مكانه كأنما فقد توازنه واستقبل الجدار الخشبي ظهره وهو يدس قفاه بين كتفيه كطيّاب العنب. نظرا إليه بحياد ظاهر. تفل على الأرض بالقرب منهما بعد تردد، معفرا كقط بات في العراء..

عصفور المسالخ

مع أن الساعة لم تتعد السابعة صباحا، كانت الحرارة قد أثخنت في هذا المكان الشبيه بمدينة ما. الشارع الذي يقطعها شبه فارغ. تمسحه بعينيك المحمرتين. لم تنم بالتأكيد هذه الليلة كذلك. بعد أن سرَّحتَ شعرك بقطرات ماء قبل أن تقطع الشركة الحكيمة خُيَيْط الماء التائه في أنابيب العمارة ككل صيف وكل خريف، تدحرجت إلى المقهى. الرأس ثقيلة، وصدى آلات جوق دار الحفلات وأبواقها شتت خلايا تركيزك، فكرت في أنها طريقة حديثة في التعذيب: نفس الجوق يتناوب على الليالي، نفس الجمهور، نفس الكلمات المؤرقة.. شاليني يا بابا، آراسي ما داز عليك وباقي، وأنا ملّيت من رقادي وحدي طول الليل.. حتى الصباح، ضجيج يلائم أزمنة اللهو.. والناس تكسر ما تبقى من دماغك بأحاديث مسهبة ومشحونة حول الحداثة، ما بعدها.. والمجتمع المدني وحقوق الإنسان.. هراء!

يوليوز. الحر. لا ماء. لا نوم. لا شهية وها أنت تؤجل المرحاض إلى المقهى.. أيوجد ترشيد أحكم من هذا ؟

تخففّتَ. يضع النادل قهوتك النّص - نص. موسيقى الرّاي تتقاذف وراء ظهرك. يتضاعف الصّهد. يجلس إلى مائدة غير بعيدة شخص بدا أنك تراه هنا كلما جلستَ، يجهد نفسه في إذابة قرصٍ مسكّن في كأس بين أصابعه. تتوقف حركة الملعقة ويقذف بعينيه

لينظر إلى قاع الكأس كأنها بئر. نادى آخر بصوت مرتفع، من الناحية الثانية، على قهوة سوداء. ابتسامة بليدة تعلو محياه. من وجهه المسلوخ بدا لك أنه مستريح تماما. غبطته على حيوته. من النعلين الجلديين حررت قدميك مع أول رشفة. غرست أصابع يدك اليسرى في شعرك إلى الرقبة. التفتت إلى الوجه المسلوخ، كان قد شبّح الجريدة بين ذراعيه وأنت — من حيث لا تدري — متورط في الانهماك على عناوينها. هذا اسم تعرفه منذ زمن بعيد، من مدة لم تره. حاولت أن تركّب وجهه في ذاكرتك وأنت تنظر إلى الشارع كما تجمع أطراف مربَكة ورقية.. آه المتأفف الذي يسكن "المعبد الغريق"!. ابتسمت كأنك تلتقط الإشارات الطائرة من كلتا يديه أثناء نتف أحاديثه. بعد تردد، عبرت إلى ضفة الشارع المقابلة، متثاقلا، وسط الدخان الخاثر للحافلة الزرقاء التي عبرت على التو، مخلفة وراءها، إلى جانب ذلك، عفرا لا متناهيا وضجيجا مدمّرا. طويت الجريدة وألقيت بدرهمين وسط حفنة الصرف التي يرعاها صاحب الكشك بملل ظاهر. غيرت مكانك وأنت تطارد قطعة الظل الراشحة من الشجرة الوحيدة الحليقة. بلا مبرر تخطيت الفقرة الأولى، ربما لأنها وصف لأشياء لا تعنيك. تعجّلتَ معرفةَ عصفور مسالخ صديقك، المهنة التي احترفتْها طفولتُك أيضا، وقرأتَ:

"... كنت أخشاك وأحترس من فجاجة أن أظل مرئيا بالنسبة إليك، في الزقاق أو في ساحة المدرسة على السواء. رغم العداوة الظاهرة لم نجد جميعا مانعا في تقديرك والإعجاب بك: كأن الحياة قدّتك من حجر. وكنت تعرف أنك فتنتنا الكبيرة، غير أن ذلك لم يثرك كثيرا: تعيش طفولتك بتسيب وفوضى عظيمين، غبطناك عليهما، نحن الوديعين المزعومين، الإمتثاليين لمسلسل يبدأ من التّيكات إلى الوزرة الزرقاء، والمجيء ساعات قبل الأوان مرهقينْ بمحفظات ثقيلة، بينما تأتي أنت مخففا طافيا على وادي الإكراهات كعود..

يكفي أن تراه — أنت — لتدرك أنه كان جلاّد الخوف: كم مرة عوقب على تمارين طلسمية استخف بها: عوقب أمامنا كما اشتهى غريب "رواية الغريب": شجيرة رتْم لم تثنها الريح العضال: يداه والعصي الهستيرية انتهين إلى ألفة ساخرة: شكل من أشكال إعلان ذاته: يُضْرَب. يصمت. يختفي وراء المزيد من العبور كما تريد الحياة وهي في لحظة انتشاء لامتحان أحلامها فيه: دلال لا يُردّ. كان ينام خارج البيت باستمرار: يتابع أخوه سيرة ما انتهى عنده معلمونا -عبثا: كان مؤشرا قبليا على رداءة نظام تربوي بكامله: فضاء تخمة الأجوبة، الاستجابات الحميدة، تخمة المنفصمين وأكياس الخر...! سأعلم فيما بعد — بعد طرده — أن الفصل كان عنده كأية مؤسسة أخرى، تافها، لأنه يحدّ من لانهائية عوالمه، يستأصل غرائزه ويجتث أهواءه. لم لمْ يكن حرا في أن يكون ما يشاء أو خُطّافاً؟ كان يكره أمر "قم" لأنه ارتاب في "كاد" شوقي، التي ما كفّت كل جدران الحجرات والعالم تتجاوبها نداءً وصدى.

كنّا، أبناء الزقاق نحن، نعرف اسمه العائلي، لكنه كان يستشيط غضبا عندما نناديه بغير "الزّو" — كحديقة حيوان — هي وحدها تدوّي بصخب راجٍ في أذنيه. كان يتباهى بتلك الحالة المدنية اليتيمة: لقيط الوجود بامتياز. لم يكن يحفل بهوية ثانية غير تلك التي منحتها إياه جرأته المستميتة في غابة زنقة باب افتوح. هو الذي عضتْه القابلة التي أوْضَعَت أمَّه من أذنه اليسرى "حتى يكون سيد أقرانه". أية المصادفات العجيبة لتأكيد نبوءة ترعرعت في السذاجة وحكمت عليه بلعنة تفيّأ فيها بسخاء وشراسة انتحارية؟؟ لم تُواته الأخلاق فيها، هو الكائن الغابوي المستعد دوماً للغارة والفتح. ولأنه اختار هذا القانون— قانون البدايات الأولى — فقد كا ن يرضى بطبيعة الخواتم: لا تهمه النهايات لأن كل شيء لديه مجرد بداية: شبيه بحاجته إلى البقاء، إلى الطبيعة، إلى الحياة، إلى المناعة.. وما أخاديد الجراحات التي علقت بأدمة وجه سوى شهادات نالها من مدرستها.

في الصباحات تلك، عندما يأتي إلى الفصل، يبدو كأنه كان ليلا في مغامرة بحرية، وحيدا كما نزل من قلب الظلمات: يكرّه أقرانه جميعا فيه. كانت نشوته المثيرة في إحساسه بهاته العزلة الإرادية: يختار أن يكون غريبا، ويصيّر ما حوله أغرب. لم يفهم العقلاء عصيانه العنود— ومتى فهموا شيئا؟! — فظل عالمه بلا اسم، ظلا لعذابه السرمدي. هل فُهِمَتْ يوماً إرادتُه؟ من أولئك الـ"عقلاء" حدّ الطفح، المتفرجين بسخاء على جرحه الديماسي الذي كان يتدلى على حبل يقينهم والذي كان يقف إزاء عالم يخاف أن يأتي؟ يعبر خلسة كما في غفلة من المتسرنمين: "إن صوت خطواتنا على طول الأزقة يحدث رجْعا مفرط العزلة. هكذا في الليل إذن، في أسرّتهم، عندما يسمعون شخصا عابراً، قبل شروق الشمس بوقت طويل، يتساءلون: إلى أين يذهب، هذا اللص؟"[1].

بيني وبينك، ليس مخجلا أن تموت عاشقا، لست أنت من مدّ لنفسه كأس السم، خلافا لسقراط الذي أرغم أثينا على ذلك، لأنك لم تؤمئ أبدا: "وحدة الموت هو الطبيب".

ما يزال صوته خيطا في نسيج خلايا طفولة قلب ينبض تراجعا كنشيد: هل كان آدميا، هو الذي تنبأ بمعنى العدم في هذا السيرك الضخم كذاك الذي سيصيح: "أقسم لكم أنني لا أملك سوى هذا القَدَر الوحيد[2] "! هل كان يلزم كل هذا العبث، هذا الألم الأصمّ ليسري جليده المرِح حمما في الأعالي، ليكون له عطره، هذا الذي يحمل نطفة عالم يحجبه العالم. وحدها الآفاق البعيدة كانت تظلل السديم في عينيك، لتحتجب من شمس الحقيقة التي تنفر من التحديق

1 - هكذا تكلم زرادشت - نيتشه.

2 - بطل رواية Terra Nostra لكارلوس فوينتس.

فيها: لم تقايض جيدَ الحياة يوماً بخدِّ الرّدى: أكيد ثمة شموس أخرى، أكيد، غير هذه.. وأنك في مكان مّا ما تزال ماثلا، أنت المدعو للإقبال على تُهَمِكَ بشراهة: لأن المحارب لا يبحث إلاّ عن معارك أنبل، يتحدى الموت معرّضا نفسه للمزيد من الخطإ، من البلادة، لأن العجز عن ذلك، عجز عن الحياة.

من هنا كان يولد: يعيد من البداية: ينبعث باستمرار، دون أن يأبه بالتعاليم اللاّمجدية، المنغلقة على نفسها: كان ينخرط في "مهمته" دون أن يعرف كيف يحددها: في هذا هو بريء: يُعفى من كل احترام ويختصم حول معنى "مذهبه" هو، بطريقة لعبية، كأنه يعارض هذا المجرى الذي يكون فيه الأمس واليوم نفس الشيء، بالأبدية... كم احترمنا الأحداث التي حالت بيننا وبين إثارة مزاجنا، أخلاط البؤس نحن: القطيع المثخن بخنوع الدواجن!

عن كل تجربة كانت إرادته مستقلة: لم يكن همّها أن تكون حسنة أو قبيحة، حسبها أن تكون إرادة فقط. لقد كان شعراء أوائل بهذا المعنى، مثالاً نموذجيا عندما خلّفوا وراءهم إرثا صالحاً للتبدّد فقط، أعفوا أنفسهم من تدوينه: تركوه غفلا بلا عناوين على أشهاد اللحظات العميقة والعابرة: راحوا بعد أن اقترحوا بكذبهم الجميل تعدد احتمالات الحياة نفسها: يدخلها كما يدخل أسطورة خيالية: يعرّش في كفّ التبدد ويبصر باتجاه أفق ما ولاّه يوماً ظهره: ما الكينونة سوى شراك الهارب كالسديم!

متى نخوّل لأنفسنا الحكم على فعل يعود إلى إرادة منع مجيء شكل فني مغاير إلى الحياة؟ متى؟

فيما كان بعض معلمينا يعطون لأنفسهم هالة الأطباء، كانوا في العمق يتصرّفون كسمّامين ـ إشرب شوكرانك!: كذلك كانوا ينمّون حسّهم وذوقهم ليفسّروا بعادة الأطفال المدلّعين، لماذا كانوا، دون

تردّد، يرفضون غير ما يقتاتون عليه، بتواطؤ، كيقين، كأن جداول الضرب وجمع التكسير حدود نائية لكثبان الأطفال: ليدفن الأموات الأحياءَ! ألا تقتضي الحياة أن نراهن بالوجود حتى الأقصى، بكل ما أوتينا من جهدٍ، حتى نستحق الذبول؟

حين عجزوا عن حدسِ وجده، شبّهوه، وصلبوه!

كان بعضهم — البعض الكثير— يبدو عجوزا قبل الأوان، متهدماً، عاجزاً حتى عن أن يكدّر أحداً أو يقلقه، عبثاً يحمّس أو يخيف: ركّب جملة مفيدة، إملإ الفراغ (؟) بما يأتي والفراغ نحن فيه. كانت تنقص الحرارة، تصير الأرض كوكباً متشابهاً، خلاءً يضيق عن كل شيء. كعيون الأسماك، تلتصقُ عيوننا بالسبورة في تهالكٍ موحش. يضرب الجرس بعد دهرٍ لنخرج من الأنفاق عميانا.

لم يكن "الزّو" ينظر إلى نفسه على أنه وريث ذريّة أو سلالة مّا، بل كمنحدرٍ من أخطاءِ وتيه أجيال بسببهم كان هناك، على الصورة تلك؛ لذا ابتَدَأ باغتصابَ "العَدم"، كأنه قدّر على نفسه أن ينجز ما لم يفعلوه، ما ظلَّ منيعا عليهم. كان الأمر يتعلّق برغبته في تحرير الكاسر فيه، هذا الكائن ذو الغرائز المتضاربة، المحصور في جسده، واثقا مما يشحنه، من حيا... ت —...ه. كان يرفضِ أن يلعب الأدوار البئيسة للتلميذ الوديع، يحسها كأنها تدعكه، تحنّطه كمومياء، بعيدا عن الإيمان بحقائقه هو، بهذيانات أحشائه الغابوية التي كانت تضيق بكساء ثقافة تاريخ غير مطبوع بخاتم صنعه.. طفلا كان يلعب عالمه بجدّية الرّوليت المميتة، بمغامرة "المقامر"، دون ذاكرة أو معرفة.. لم يعْنه الرخوُ من الكائنات وما كان لحافَ ريشٍ لنعاسه: كأنه كان ديكَور الحياة.. وحده ذاك الذهاب للقاء أنا أخرى تنغل بفوضاها المخيفة، تمرق باتجاه وقت آخر، تحتقر، "تظلم" ما يستحيل النظر إليه أو مصالحته من علياء اللحظة المتوهجة توهُّج إسفلت زقاقنا الأملس عند

الهجير، مدهشا كان، كأن حظه الوحيد يستحيل أن يكون شيئا آخر، غير الأرض، غير التراب، لا.. "لا تكمن مشكلة التاريخ في اعتباطية المعنى التي يلصقها بالأحداث ويفرضها عليها فرضا، بل في الحياة التي لا يعرف كيف يخدمها".. ما الكلام سوى تجربة غائصة في الشحوب.

مَنْ في المعمور يمكنه أن يدحض أن الآخر ليس سوى امتداد لعزلتنا، تذكير بالاحتماء من مجهول نتحايل على مواجهته؟ متى كانَ الفاني ملجأ مسْكِراً من غير أن يكون احتفالا أرضيا، يضمن نشوة الآنا العارية كورقة قيقبٍ في غصن تقلبه الريح حتى لا يُرى إلا في حمّام نور منتصف نهارٍ منبوذ كذاك الذي كان يغمر حجرة الفصل أحد صباحات ديسمبر القاسي؛ النافذة العالية المطلة على ساحة مدرسة باب افتوح للبنين، الساحة العارية إلاّ من رائحة مطبخ "لاَكَانْتِينْ"، الخبز الطري، الطون، الأرز والحمص.. النافذة العالية علو شجرة الليلك الهندي التي تخالط خضرتَها صفرةٌ مرتبكة، كمداء، ذات الثمرات الصغيرة الجميلة، المكوّرة والشاحبة... كان الأفق مغريا، أديماً نادراً في ديسمبر الشحيح بالزرقة والضياء، على الغصن هناك — خارج الفصل — كان عصفور الدوريّ يشحذ منقاره بغصْنٍ رقيق، يرفع رأسه ويقلّب سائر الجهات بعيني لصٍّ صغيرتين.. يعيد الكَرة إلى مالا نهاية، كل ذلك كان يمرّ في لمحة برق.. أية الصدف العمياء أشخصت بالعصفور إلى ذلك الغصن الرطيب؟ المقابل بقشرته البنية المشقّقَة، الغصن الواسع أكثر من حجرة فصل رمادية، كئيبة، كالقفص كانت؛ يتسع الغصن، يصير فسحة بلا نظير، وتصير الحجرة كابوسا... يحدّق الدوريّ فيه وتتسع حدقتاه باتساع لجٍّ يهوي فيه الفتى، يتوحدان، يغرق الواحد منهما في الآخر، الرمل والماء، الطائر الوحيد الذي ينتحر في الأقفاص: زير الحرية... على الغصن معاً، تموّجت قارّات، كواكب، بحار، غابات وحدائق؛ هناك، لاقى

السندباد، الأمير الصغير وعلاء الدين.. لم أدر كم استغرق من وقت.. لعله انتفى بخاراً، عندما صارَ جزءاً من كوكبٍ ضالعٍ في دغَل البدايات.. في نسغ السَّحر.

لماذا تتأمله الآن؟ أريد أن يظل عبوره في حياتك عظيما، باتجاه جزره الصغير، الخالدة والمتجاسرة.. لا يمكن أن تتأمله من زاوية إجماع الأحلام والأهواء!..

انقطعت عني أخباره مدة، فرّقت بيننا قرارات الرحيل القسري، جريا وراء خبز ضاع فيه الآباء، في وقت حارّ كالفلفل، ولم يعودوا؛ قرارات لا دخل للصغار فيها؛ سمعت أنه ترك المدرسة وأنه سجن بتهمة اللصوصية؛ بعد مدة خلال عطلة صيف هاجت فيها الحرارة، وبإحدى الغرف القاتمة، كالطفولة تلك، بالمسلخ البلدي — تحت السوق الأسبوعي — ، على صوت لمعلم "لعوينة"— أحد السلاّخين الماهرين، صاحب الدراجة الهوائية التي تحمله من "عْياطْ" فجرا كالسنونو— لتبدأ عملية نفخ مواشي مشبعة ذبحا وسط برك الدم الضحلة، ليلاً، مقابل فلسٍ حقير... فتحت عينيّ وأنا أنظر إلى نفس الولد شاخصاً كنجم خاسفٍ أمامي، بسائر فصوله، متداخلة.. لم أدر متى عاد، كأنه كان يحمل وردة الذين عبروا الجحيم ما قبل الأخير.

حينما أدرت وجهي باتجاه النداء.. تهالك على النوم بعد أن عاد إلى قاع الغرفة القاتمة حيث اغتصبوه، ولما فرغوا من الحفل المسعور ذاك، أفرغوا على وجهه دماً وروثاً حتى الغرق، وسط قهقهات فاجرة تسلخ "الطائر المتوحد" الذي لم تحمه أرض، كان يحتمي من نفسه ومن الآخرين ومن الأزل في برك ومجاري الدم تلك، لا ينفخ مثلي — مثلنا — ، على عقيدته المعشوقة ما يزال راسخا.. من الغرفة خرجتُ دون تردد، باتجاه الشارع، كان ضوء الفجر الرصاصي يتفتّق في الأفق البعيد ونسيمات الصيف البكّيرة والمتعجّلة تلفح وجهي المدبوغ بالسهاد والعياء... لم ألتفت إلى الخلف، الخطو يحث وصوت لعوينة ما يزال يمزق سكون المكان، يلعن الكائنات، يشتم ويتوعد،

لحظتها كنت منتشيا بالإياب إلى الذات، وبذلك الطفل المعدني الذي يمكن أن أحكي عنه حكايات عديدة.

تركته وأنا أزحف حافا بخطواتي منحدر "شارع الجيش الملكي"، هبّت آخر النسيمات متقطعة وكان الطوار بارداً. هياكل السيرك الخشبية والزنكية الملوثة، كانت ما تزال تُقَطِّرُ الأصوات، ولا أحد، كان الجاحظ يقرأ "كتاب المعلمين" وجاك پْريڤير ينشد قصيدة "صفحة كتابة" في السوق.. لم يكن الرجع شارخا، كالهمس كان، ولا أحد. لا، كان هناك بيرم التونسي، جاثيا على ركبتيه، كالمصروع، يسد أذنيه بكفيه والجمر ينفر من عينيه، كأنه فرّ للتّو من والٍ تسيجه الأقفال، تحيط به رُقع الورق المقوى، التي خلّفتها حلقة مولايَ احمد، بلا نسق..

هو الآن على الأقل، يموت وحيداً، سيّد نفسه، كالكواسر والحيوانات الشرسة التي تختار قلب الغابات الداجية لتموت في نبالة، بلا سلالة أو ذرية أو أتباع، كأني به يتعجل الفرح، ألا يحق له ذلك و"هو الساقي خمرة دمه من كأس جسده؟ أليس من أدب السقاة التدلل؟"، حرّا في كتاب حياته: جاء خلسة وراح خلسة في غفلة من العالم وتاريخه وقضاياه الكبرى: عاش وحيداً ونادراً: كم طيوراً — لتغني أحسن— فقأنا عيونها في ليالي سها فيها التاريخ العجيب".

خلا رصيف المقهى. بردت بقية قهوتك والرجل ما يزال في عراك مع قرصه المسكن. فكرت في مدى واقعية الحكاية واندفاع خواطر صديقك، انتحلت له بعض الأعذار بعد أن تعرفت على الطفل. دفعت الكأس بأطراف أصابعك. ناديت على النادل. يوليوز. الحر. لا ماء. لا نوم.. ثم رحت إلى مسلخك: لأنك الليلة أيضا، مدعو من جديد للسهر مع عرس "جديد".

نشـــوة الإيـــاب

قد لا يذكر العديد منكم بيبينو.. ثم كيف يذكره في غليان هذه الوجوه المتعاقبة على الدوام، المتوارية باستمرار والتي لا نلبث نغفو عنها في حركية تفاهة الواجبات اليومية. لقد تذكرته اليوم بالخصوص وأنا أراني يافعا أمرد، أطل من سطح البيت.

استيقظت متأخرا بعد أن غمرت حرارة شرسة الغرفة الصغيرة ذات السقف الاسمنتي الواطئ التي كانت على سطح بيتنا. استفقت وأنا أرشح بالعرق وسط شراشف مبللة ورائحة ملوحة قوية تثقل الفضاء وتزكمه. تناهى إلى سمعي ترجيع صغار الكتاب للحروف الأولى من الأبجدية العربية. كان الكتاب يقع خلف البيت، على مبعدة سقف منزل واحد. ترجيع لا متناه، سلسلة طويلة من الحروف، كأن الفقيه كان قد شحنهم، مثل تلك الساعات الروسية التي كانت تفيض بها باب سوق المدينة الصغيرة، وغاب إلى الأبد، لا يثني دجاجاتها عن نقر الأرض العارية شيء.

خرجت من الفرن ذاك. كانت جدرانه الأجورية المطليّة بالجير الأزرق خائرة مستسلمة أمام نصال الشمس المنجنيقية، التي لا تبرحها حمى ضربات الشمس إلا مع الفجر، حيث تصل آخر هبات ساقية تامكنونت والحزام الأخضر لشجيرات الرمان، الليمون، الكروم والزيتون في أراضي الخضروات الندية من سيدي عبد الحليم إلى

الصومعة، هناك في الأعالي، هبات نادرة تعمدها أشجار الكاليبتوس القوية التي تؤوب إليها طيور البقر البيضاء كل مساء عندما يتخثر النور، يخف النهار ويحلو الاياب.

كانت مربعات السطح السوداء والبيضاء كالمقلاة، حامية. ونظرا للحساسية الجلدية الوراثية التي كنت أصحبها معي، إذ تتورم قدماي الحافيتان دائما من فرط الحرارة، اضطرني للانسحاب دون المكوث طويلا بلا نعال. تحت الصنبور الوحيد الموجود في ركن من أركان السطح قذفت برأسي تحت الماء البارد، لمدة غير قصيرة، أغمضت عيني فيها، أحسست خلالها بالبرودة تسري إلى عروقي، انتعشت أعضائي، عدت بإحساس آخر من حلم الليلة الماضية. كان فيه بيبينو يرفل إلى جانب الأبقار والعنزات عريسا في مزبلة طريق عسفة السرحاني القديمة، يلوك بقايا الزجاج وأعقاب السجائر ويدخل في خصام مع كائنات مقلب الزبالة ثم تفتح دواليب من النطح حول أعقاب ما تزال تحتفظ بخاتم أحمر الشفاه على رأس المصفاة.

سرحت ذراعي على حافة سور السطح ثانية، وذقني فوق اليدين المبسوطتين الواحدة فوق الأخرى. جدران البيوت متقابلة. دبغها عفر التراب الأصفر. تعلوها خرابيش الطباشير والفحم. أغلب الأبواب مغلقة، باستثناء النوافذ حيث يتسرب شذى توابل الطهي لا مرئيا، كرنفال حارة باب افتوح الممرغة في الضجيج والروائح والصياح. سيارة «سيمكا آروند» واحدة، مستغرقة في ذهول خاص، بمحاذاة الرصيف الأيسر. حفنات متناثرة من الصغار والكواعب، هنا وهناك، جزرا في مجرى نهر الاسفلت الجارف للنداءات الطافية لكل من ربّاطا لمعلم، لْواني، جافيل، النعناع... كل النوافذ كانت مسيجة بحديد أنبوبي مربع، بلا تناسق. على الأسطح المجاورة، حبال غسيل نظيف، بألوانه الزاهية، يستقبل زخات الشمس اللافحة. تتصاعد سلسلة

الحروف الأبجدية اللامتناهية كأنما تصلبت عليها الخناجر الصغيرة. على أسقف غرف السطوح الزنكية والملاطية، تناثرت أشياء عديدة من مختلف النسب والمعاجم، قارورات، دواليب حديدية، أنابيب معوجة، مغسلات مكسرة، أسلاك، أطراف شبابيك، حطب، دور غربال، رجل دمية، كراسي مبتورة السيقان، زجاج نوافذ مهشم، أطراف قماش بال، هيكل سرير، كرات، مقبض مدية، أحجار... كل شيء سيصلح حتما في يوم من الأيام. إرث عجيب لا مجال للتخلص منه: ما قبل شعور البيوت والمعرفة. الناس لا يلقون بشيء في هذا الحي، في سائر الأحياء ربما. يوم الشدة لا ريب فيه، والقدر عدو مرتقب، لا أمان! نحتفظ بها مثلما نحتفظ بالزيت، القمح، البصل، اللحم المجفف وغيرها.. مثلما نحتفظ بالأجوبة عن كل شيء، عن كل سؤال عسير مباغت. كل مشاكلنا لها أجوبتها، حياتية أو فكرية، كل الأعطاب البيتية لها أجزاء ترمّمها. لن نطير يوما، لا تخف! لأننا مثقلون. ربما لأننا لم نتعود كيف نلقي بالأفكار، لا نجددها، لا ننشرها كالملاءات تحت الشمس ليتبخر ما فيها من رطوبة، كذلك لم نتعود رمي سوى ما استنفد واستحال أن يكون قد فاتنا أمر وظيفته المحتملة. لهذا في بيتنا نحن، كنت أعثر في سطل القمامة على بقية ربطة نعناع، حفنة من الرماد، قشور خضر وقلوب فواكه إذا حصل أن أطعمنا فاكهة ما ذات ثلاثاء. لم تكن فكرة تحويلها إلى أسمدة واردة بعد، وإلا لما صار هناك من دافع إلى بقاء سطل الزبالة ذاك.

كنت قد تعرفت على بيبينو إذن عند تلك الشجيرات على مقربة من مدرسة المحمدية، الوحيدة آنئذ، جالسا إلى حافة الحديقة الصغيرة، بعد أن انتهى من القيام بأحد أدواره التشخيصية في فصل من فصول رواية تاريخ محلي حولته طاقة تخييلية هائلة، ستحمل فيما بعد بسنوات عديدة تالية، اسم «زغاريد الموت» وبيبينو في الواقع شخصية رئيسية، طلب منه أن يعيش قدره، أو أقداره كما يفضل هو أن يقول،

بتلقائية كبيرة، لأهمية ذلك في الأكسسوار المستقبلي. ذكي، حاد، صاحب نوادر إذا شاء، عيبه الصغير، شروده السريع أحيانا. كان ساعتها قد خرج على التو من نسيج الرواية عندما خاف من تقديم شهادة لصالح العلالي— شخصية محورية أخرى في الرواية، اختلف بيبينو مع المؤلف حول مصيرها — في "بيرو آعراب"، خاف أن يحصل له ثانية ما وقع في بيت البيعة، ستعرفون ذلك فيما بعد. وبذريعة أن بطنه قد همى من الخوف الذي يسبق حالات مشابهة، قفز بيبينو على شدير البستان الذي كانا يسيران فيه على طريقهما إلى البيرو، واختفى. كان حزينا، عرف أنه لن يجيد ذلك الدور. في المرة الأولى كان أونْفورمْ، وأدى كل ما أسند إليه بمهارة وإتقان فائقين. كان ضجرا عندما التقيته، على يقين قاطع للقلب، من أنه جزء تافه من هذا العالم عديم الأهمية...

حتى لا أنسى، فبيبينو كما عرفت فيما بعد، رجل خرافي، على علاقة بسائر أبطال الروايات، ليس العربية فحسب، بل العالمية، التي كان يلتقيها، دون تبجج، في مختبرات الروائيين. أبطال ينتمون إلى زمن غير زمننا وفضاء غير فضائنا. وأنه بقدر ما كان يعرف أبطال دوستويفسكي، غومبروفيتش، بروخ، بروست وغيرهم،عرف شخصيات الطيب صالح، عبد اللطيف اللعبي وإدمون عمران المليح وآخرين.. وأنه كان كثير الوله بأرنديرا اليتيمة والبريئة — الملامة على جدتها. كان يولي ظهره بكبرياء لايما بوفاري التي ما كفت تطارده لحرارة دمه، دون الحديث عن ماري انطوانيت العجوز والمغنية الصلعاء وبرونيلدا، كومة البطاطس، وزنوبة الثخينة وفاطمة صديقة العيشوني عندما ذهبت إلى اسبانيا... كم من الخواطر الباكية أودع في أذن أرنديرا، وكم من القصائد ارتجل لها من لوعة الحب في حضرة العلالي عندما كان يجالسه هو وصديقته بغلة القبور، يقتسمان سبسيا وكأسا، والقبيلة نائمة على الضغينة والكهوف والنميمة الأزلية، نافضة أيديها..

كانت الساعات تتدفق كالرمل، ساعات من الآهات، خفقان قلب مكلوم، ساعات يحس فيها بأنه يخترق الأشواق البشرية كافة، يشده فيها التوق إلى فتح رئتيه على هواء أراضي أخرى، مروج أخرى، نائية وقريبة في الآن ذاته. كان مخدر القلب بعد سريان مدية الوجع، في نسيان تام للعالم من حوله. أحس أن قلبه مشروخ ومستحيل الارتواء.. كاد يوما أن يهتم أسنان عمدة «ساعة نحس»، الذي عكر عليه لحيظات الانخطاف، الوجد والتناسخ مع طيف أرنديرا، من كثرة التشكي من ألم الأضراس الذي كان بيبينو يستخف به، ويعتبره ألما عقيما. كاد.. مثلما فعل ناهض بن ثومة الكلابي في وليمة بالبصرة، كاد، لولا تدخل العلالي الحاسم والعنيف. هام بيبينو في الأرض، لدرجة كاد مرة ثانية يعتقد أنه اقترف ذنبا من دون أن يولد، مثل الهنود، سيعاقبه عليه روائي ما حتما ذات يوم، إذ ما معنى أن تحل به هاته البلوى وحده، وهذا الكرب والإعراض من دون الخلق! ما معنى أن تكون حياته قسوة متصلة، لماذا تجافيه الحياة في لامبالاتها القاسية! لولا أن التقى مرة أخرى مع بانورغ، بطل رواية بانطاغرويل لرابليه، الذي أسقمه التعلق وأكمده العشق حتى تحرش بالسيدة في الكنيسة، ولما لم تسمعه حك عضو كلبة مهتاجة على ثيابها، فتبعتها بعد ذلك كل كلاب الدواوير المحاذية.

لم يخف من الارتجال، بيبينو، إلا بعدما فسر له راوي «زغاريد الموت»، أن هاته الشخصيات ذات قدر مغاير، وأنه لا دخل لها البتة في مصيرها بصفة مباشرة. ليس الذنب ذنب أرنديرا هاته المرة، بل ذنب غارسيا ماركيز الذي ربط مصيرها بمصير جدتها الملاحقة للسيرك والجنود.. ولولا ذلك لكانت لها معك حكايات ونوادر لكن، مَثَلْ ما سأمليه عليك، بحب كبير، إعشق الأدوار التي سأمنحك إياها، سأخرجك من الخام، من الغفلية، من العدم الذي كنت فيه، أصوغك متدحرجا لتجري في سديم المعابر التي جرت فيها أرنديرا، سيحررك

ذلك من الطاقة المحبوسة فيك، ستكون ساخرا بحماقات الآخرين والعالم، بجديتهم المزعومة، بعقلانيتهم وأشياء أخرى لا داعي للبوح بها، تحرر في السخرية، «لأنها الوميض الالهي الذي يكشف العالم في غموضه الأخلاقي، ويكشف الإنسان في عجزه العميق عن تقييم الآخرين، السخرية — بيبينو، اسمعني — هي نشوة نسبية الأشياء البشرية، هي اللذة الغريبة النابعة من يقين أنه ليس ثمة يقين قط»، لم تعش بعد ذلك العذاب الذي عاشه جوزيف «ك» أو سامسا، وأنت تعرف ذلك قبلي!... لنفكر سويا في التقاط تفاصيل الواقع النابض، الحي، الزاخر بالكوميديا الشفافة كأبيات قصيدة، ادرك معي أن هذا العمل، ولو أني رصدت لك حياة متقشفة في نوالة ضيقة بئيسة بصفيح بولكرون، تتقاسمها في ضنك مع محماد الكاتشور والتحفة، صهريك، ولو مرغت لك زوجتك القاسية ديالة خروف العيد في البول، وبخرتك بالشراويط، وخبطت رغائف الفطار على ردفيها.. لن يلوي بك شيء، هوذا ما يردم المسافة بين الخيال والواقع ويكسبها إيقاعا شعريا به نستطيع أنا وغيري تحمل الحياة.. تحمل هذا الذي تسميه عبئا ودورا لا يليق بك، هو ذا قربان لقائك بأرنديراك التي تجشمتُ العذاب لأفطرك نداً لها، وإشرافي أنا على ضفاف كانت لي، قادَمها الزمن والتاريخ فنأت.. لأن الكتابة استرجاع ملكيات مفقودة...

كان ضجرا لما التقيته، ضائقا بالعالم الأضيق من أسوارة. مكث بقلبه رعب مكتوم، عرف أنه بدون هذا الميثاق لن يكون بإمكانه أن يحيا، لأن حياتنا، نحن الأموات، ختمت عليه وحالت دون دخوله، لأنه لا يحمل شهادة الإقرار بإمكانية الفناء، لن يكون بإمكانه أن يصرخ، أن يندب، أن يوقظ أناسا ويهدد آخرين، أن يقول ما أراد، أن يجأر، أن يرتكب المحارم...

كنا نسير ببطء، على كورنيش الخرابات المحاذي للمقبرة، وأنا أسترق إليه نظرات وجيزة وخاطفة وهو مستغرق يتأمل الأحياء العابرين، يتأمل هذه الدور — المقابر، هذه الكائنات الزائلة التي تعاني أصلا من داء اسمه الوجود.. عند مدخل السوق العلوي، وقف أمام معروضات «بالالا» كان بالالا يبيع في عراء الجوطية كل أنواع الرفات، كل الأجزاء المخرومة أمام الكانون الضيق الذي كان يتكوم فيه، مثل ديوجين أثينا. كل شيء متراكم، من نواقيس الدراجات، دفاتر مستعملة، مفاتيح صدئة، أطر نظارات بلا أذرع وطواقم أسنان مهشمة.. صحيح، لم يكن أحد يبتاع منه شيئا، إلا نادرا، لأنه لا يحب المشاطرة، فهو محل تجاري «ابري فيكس»، كما يقول هو... مقابل ذلك كان يروم التجول بنظره فوق مخلوقاته التافهة تلك، المعروضة أمامه في ألفة لا تعرف الملل، كإله صمت بعد الخلق ونام، معروضات تشبه أية مدينة من الأموات، أية مقبرة من المقابر.

انفتحت أسارير وجه بيبينو فجأة، بعد إمعان، في تلك الرفات. أطلق قهقهة مدوية، كما من العدم، خبرت أنه فكر فيما سيقوله سيوران في التسعينات من هذا القرن، ذات يوم، من أن زيارة المقابر تخفف الضجر، ومن أراد أن ينتحر عليه أن يزور مقبرة في البداية.

فتح رواية، كان يحملها بجيبه الأيمن، دون تردد. مرقتُ عنوانها «زغاريد الموت» عين صفحة من الفصل الأول، دخلها واندس. غرق فيها إلى حين كتابة هذه الصفحات. كأنما راعه وعينا بالزمن المرعب وتجربة القلق التي تدمرنا. هل اختار الأبدية أم موتا خاصا؟ حملت الرواية، دون أن آبه بالجواب. وعدت.

شعرية الأرق

هذه المرة، لم ينعم البتة بلذة السهاد..

هو الذي كان يفتعل إراديا إثارة دماغه ليصحو، يمرّنه على النوم القليل الذي يمدّد الحياة. كان يعرف أن النوم يشبه طاقة تدميرية عندما لا يكون مستحقا، عندما لا يجدر به المرء؛ كأن ينام مثلا في روضة من الحقائق الجديدة والأشياء المكتشفة التي تذرو تلك النّوريّات الشفافة وخردة الساعات التي كان ينام عليها مطوّلاً.

هذه المرة لم يستطع تناول حبة التّميسْتا التي سبق لأحد الأصدقاء المتوترين أن وصفها له.. بأنها نادرة المضاعفات القبيحة.. فقط شيء تافه من النسيان الممكن الحصول مع تقادم العمر، وتشنجات عصبية طفيفة لا تكاد تدرك بالعين العادية! لم يستطع تناولها، لأن عليه أن يستيقظ مبكرا، إكراهات العمل، صوت محركات الحافلات وطاكسيات الگازوال التي لا تكف عن المرور من الطريق المحاذي لغرفة نومه؛ كما أنه يشمئز كثيرا من ذلك الارتخاء والدّوار الذي يرثه عن حصة نوم قصيرة كان يجب أن تطول، فيستيقظ بلا شهية، مقرّح الجفنين ومشدود المعدة.

أربع ساعات بعد منتصف الليل ومدافع مكبرات الصوت في دار الحفلات المواجهة ما تزال تقصف أذنيه بمنجنيق الآلات وتهرب، بأغانيها المكرورة، النومَ إلى ألياف مكانية أخرى. دار محرّمة، فوق سلطة القانون والناس والزمن.

أربع ساعات... وهو يعدّ الخرفان، واحد، إثنان.. عشرة... مئة وثلاثة عشر..ركّز دماغه جيداً مع حركتيْ الاستنشاق والاستنثار، راسماً بذلك شكلا شبيها بقرنين نصف دائريْن، متخيّلا حركة نزول الهواء إلى رئتيه وصعوده منهما، حريصا على أن لا تنتشله أية فكرة أو أي انفعال من ذلك، وأن تبقى صفحة دماغه مطاراً مغلقا في وجه الأفكار العابرة... لعل فكرة الأرجوحة الطويلة الحبْلين، المدلاة من شجرة باسقة، والمعلقة تميد في الفراغ، عاليا، كفيلة بإخراجه تدريجيا من هذا الألم العقيم! قَبِل الفكرة بينه وبينه، لكن سرعان ما ارتعب من إمكانية انقطاع الحبل والشجرة الممدودة في الهواء وأين المصير!... تلوّى، فرج فخذيه قليلا ووضع ذراعيه متوازيين تحت المخدة، ضمّها ورنا إلى دقات قلبه وهي تطن في الأذن الموالية لوجه المخدة الرديئة. قلب المخدة على الوجه الثاني، وضع عليه خده الآخر. أعاد عملية العدّ. راح وعاد في عملية التنفّس..

دفع الملاءة إلى حزامه وجذب الشرشف الأزرق إلى أعلى صدره. لعن الكون وانحطاط هذه الأغاني ومغنيها والمستمعين إليها. ولّع النور. حملق في السقف. مرّر أصبعين من يده اليمنى على جفنيه تباعا، في حركة دائرية. كرّرها مستسلما لخَدَر دغدغة عينيه المتعبتين. تسربت إليه أفكار متناثرة عديدة في اللحظة تلك، تضاربت ولم يتذكر منها أي شيء.

قفز خارج السرير. أشعل سيجارة، قذف بأول تنشيقة من الشباك المفتوح على الشارع. ووسط مديات الآلات والأبواق الهائلة غبط كل نوّام العالم، تخيل كافة الأسرّة والأوضاع والروائح والعطور وأحسّ بأنه وحيد وأن لذوق السيجارة في فمه طعم الجير، ثم راودته رغبة في البكاء.

كان الأفق غبشيا وأولى أهداب النور تتمطط بعيدا في كسل..

تذكّر غاليب، من سائر الخلق.. غاليب الذي كان قد تعرّف عليه، من أيام قليلة عن طريق أورْهَان.. نعم تذكره الآن، كان يقول له:

— «ها قد استلقيتَ على السرير. استقرّيْت بين أثاث وأشياء ألفْتَها، بين ملاءاتك وغطاءاتك المشبعة برائحتك وبذكرياتك؛ اَسترجعتْ رأسُك وسادتَكَ الناعمة الملمس المألوفة، استلقيت على الجنب؛ عندما تسحب ساقيكِ نحو بطنك، تحني رأسك، وجه وسادتك الرطيب ينعش الخد؛ قريبا جداً ستنام، وستنسى كل شيء في الظلمة، كل شيء»(*).

— كيف يمكن للمرء أن ينام، غاليب؟ وسط هذا الجحيم عديم المعنى.. هذا نوع من الإبادة المبرمجة يوميا، كل ليلة.. تشعر كأن روحك تسلّ من جسدك بشوكة طلح.. أنت تتكلم عن ذلك النوم الوردي، نوم القساوسة السريع، الضمير خال من كل عتاب أو ذنب؛ أو نوم المتصالحين مع أنفسهم تحت الستائر المخملية، وستائر الساتان الشفاف؛ أو نوم الموظفين المرهقين؛ أو نوم بطلات الأفلام العاطفية الشبيه بالحلم.. هذا الشارع ليس هو غاب الأميرة الساكن..

— «ستنسى كل شيء: سلطة رؤسائك القاسية، كلامهم الصادر بلا رويّة، حماقتهم، العمل الذي لم تتوفّق في إنهائه، سوء التفاهم، الخيانة، الظلم، وأولئك الذين يقذفونك باتهامات مّا وأولئك الذين هم على وشك أن يتهموك؛ قلقك الماديّ، الزمن المفرط السرعة، الزمن الذي لم يقرر أن يمرّ، كل ما وكل أولئك الذين لن تراهم قطّ، عزلتك، خجلك، خيباتك، حظوظك العاثرة، حالتك المثيرة جدًا للشفقة، قريبا ستنسى كل شيء، وأنت سعيد لأنك ستنسى كل شيء. ها أنت

(*) المقاطع الموضوعة بين مزدوجتين، مأخوذة من رواية: "الكتاب الأسود" للكاتب التركي أورهان باموك. ترجمة الراوي.

تنتظر. ومعك ينتظر الأثاثُ المحيط بك أيضا، الدواليب، العادية جدا، المعروفة جدًا، منغمسة في الظلام أو في الغبش، الأدراج، الموائد، الرفوف الجدارية، الكراسي، الستائر المسدلة، الثياب التي تجرّدْتَ منها على التو، علبة سجائرك، محفظتك وعلبة أعواد الثقاب في جيب سترتك، ساعتك، بدوْرها، تنتظر».

— إنتظر معي وسترى.. هذا شارع نهارات وليالي مواكب كل حماقات العالم، تتناوبه كائنات خارجة لتوّها من الكوابيس.. إنتظر معي، لقد حدّثتك ذات فجر ليل سريالي شبيه بهذا الليل، عما حدث.. انتظر، سترى، عما قليل، الأرائك والأثاث والأواني تُقْذَف من السطح وعبر النوافذ.. وعروسا تهجر زوجها وعائلتين تتناحران.. لهذا المكان شهوة مستبدة قلت لك..

— «في غضون هذا الانتظار، تصيخ السمع لأصوات الشارع المعتادة، لصوت سيارة تعبر على المبالط، المألوفة بدورها، وعلى برك الماء قرب الرصيف، لصوت باب تُقْصَف في مكان ما في الأرباض، لمحرِّك ثلاّجة قديمة، لكلاب تعويّ في البعيد، لرَوْق الضبابة الصاعدة من البَحر، لستار محلبة حَديدي، أُنزل فجأةً. مع الكرى والأحلام التي تثيرها هذه الأصوات المحمّلة بالذكريات التي تصبّ في العالم الجديد للنسيان السعيد، تذكرك أنك عمّا قريب جدا، ستنساها جميعا، حتى الأثاث المحيط بك، حتى سريرك العزيز عندك؛ وأنك ستنزل إلى كون آخر. ها أنت على أهبة. أنت على أهبة. يبدو كأنك تحفّظتَ فيما يتعلق بجسدك، بوركَيْك، بساقيْك اللذين أنت سعيد بهما، حتى فيما يتعلق بذراعيك، بيديك القريبتين منك جدا. أنت على أهبة، جد سعيد، لأنك على أهبة، لأنك لن تشعر أبداً بالحاجة إلى مساعدة امتدادات جسدك تلك، تعرف، بينما عيناك تنغلقان، أنك ستنساهما، هما أيضا».

— ما عاد يجدي هذا الكلام.. يا..

— «تحت جفنيك المقفلين، عرفتَ أنه كانت تكفي حركة عضلية ضعيفة لكي تنأى حدقتاك عن النور. وبما أنك واثق من أن كل شيء على ما يرام، بفضل ما تثيره تلك العطور وتلك الأصوات المألوفة، تبدو عيناك كأنهما تتواصلان معك، وليس النور وحده الذي يسود في الغرفة هو ما بات غير محسوس تقريبا، بل الألفُ لون لنورٍ وهّاج كأسهم نارية، النور الذي يحرق عقلك المرتخي أكثر فأكثر وينفث السكونَ باستمرار؛ تبصر البقعَ والبروق الزرقاء، الضباب والقبب القرمزية، الأمواج المرتجفة ذات الزرقة القانية، ظلال الشلالات الخُبّازَية، انقذاف الحمم البنفسجية من فوهة بركان، الزرقة البْروسيّة للنجوم المتلألئة والساكنة. تتكرّر الأشكال والألوان، تتوارى، تعاودُ الظهور، تتغير ببطء، تبدي مشاهد منسية، وأخريات لم تكن، ذكريات حقيقية أو خيالية؛ تتعجّب لألف لونٍ يتزاحم في ذهنك..

ومع ذلك ما زلت لم تبلغ النوم»

— ....

— «أليس الوقت جد مبكر لأبوح لك بهذه المسلّمة؟ تذكّر ما كنت تفكر فيه خلال المساءات التي تنام فيها بسلام. لا تفكر بالخصوص فيما فعلته اليوم، ولا فيما تنوي فعله غداً؛ أوقظْ، بالأحرى، ذكريات ممتعة تقودك إلى النوم: لقد انتظرتْ أوْبتَك وستخلُص إلى الإياب إليها، وهي سعيدة بذلك! أو إذن، لا، لا تلتفت نحوها، ستصادف نفسك في قطار يقتفي أثراً بين أعمدة مغطاة بالثلج، وعلى جنبك كيس يحوي كل ما تشتهي أكثر؛ أو تلفّظ العبارات الجميلة جدا التي تخطر على بالك، بصوت مسموع؛ قدِّم أجوبة لبيبة، يدرك الكلّ الخطأ فيها، يصمت ويشعر إزاءك بالتقدير، حتى وإن لم يفصح عنه؛ شدّ إلى حضنك الجسدَ الجميل جدا، الجسد الذي أنت هائم به،

والذي ينشدُّ إليك؛ عُدْ إلى ذلك البستان الذي لم تستطع أبداً نسيانه، واقطفْ منه كرزات جد ناضجة؛ إنه الصيف، الشتاء، الربيع؛ والصبح عمّا قريب، صبح أزرق، صبح في غاية الجمال، مشمس، صبح سعيد، حيث سيكون كل شيء على ما يرام.. لكنك مازلت لم تتوفق في النوم..»

— إسمع...

— «إذن إفعل مثلي: وأنت تحرك ذراعيك ببطء شديد، وساقيك دون أن تزعجهما، تقلّب ببطء في سريرك، بحيث تبلغ رأسك طرفَ الوسادة، وخدُّك، طرفا رطبا من وجهها، ثم فكِّر في الأميرة «ماريا پالْيولوغ» التي غادرت بزنطة منذ سبعمائة عام، لتصبح عروس خان مغول هولاكو. ذهبت من قستنطينة، من المدينة التي تعيش اليوم فيها لتتزوّج من هولاكو، الذي كان يحكم إيران، لكن نظراً لأن هولاكو قضى نحبه قبل وصولها، تزوّجتْ من «آباقا»، الذي تولّى عهد أبيه. مكثتْ خمسة عشر سنة ببلاط مغول الكبير ثم عادت لقممها السبع بعد أن اغتيل زوجها، هناك حيث تشتهي النوم بهدوء. ولكي تتشبّه بالأميرة ماريا، تخيلْ حزنها عندما قفلت راجعة، ثم الأيام التي قضت في الكنيسة التي شيّدتْها خلال عودتها على قرن الذهب، وحيث اعتزلَت. فكِّرْ في أقزام السلطان «هندان». كانت أمُّ السلطان أحمد-الأول قد شيدت لهم بيتا بأشْكودار، موهوبا لضمان سعادة أولئك الأصدقاء الصغار الذين كانت تعزّهم جدا؛ مكثوا مدة سنوات، وبمساعدة السلطانة دائما، بنوْا لأنفسهم الغلْيون الذي سينقلهم إلى صُقْعٍ يجهله الجميع، إلى فردوس يجهلون هم أنفسهم وضعه على الخرائط، غادروا إسطنبول بهاته السفينة. فكِّرْ في يوم مغادرتهم، في حزن السلطانة وهي تفارق أصدقاءها الأعزّاء، في كآبة الأقزام المبهمة وهم يلوّحون بمناديلهم مودّعين إياها من أعلى الغلْيون؛ تخيّلْهم، كما لو كنت تغادر إسطنبول أنت أيضا، وكل الذين تعزّهم».

— لشدما تذكرني بالفتى الطائر، بهلوساته اللذيذة واستيهاماته الزرقاء، بالدب الصغير المخدّر، هناك على الرّبى.. أو بدلْفين الأزرق العظيم.. حكايات.. حكايات أشرطة..

— «عندما لا يوفَّق كل هذا في تنويمي، أيها القرّاء الأعزاء، أتخيّل عندها إنسانا معذّبا، حائرا، يذهب ويجيء على رصيف محطة قطار مهجورة، حيث ينتظر قطاراً لن يأتي. وبمجرّد ما عيّنتُ المكان الذي يعتزم الذهاب إليه، يعني أنني غدوتُ هذا الإنسان، أفكر في أولئك الذين يبذلون جهدا في نفقٍ عند مدخل «سيلڤيري»، لمساعدة الإغريق الذين يحاصرون إسطنبولَ للدخول إلى المدينة. أتخيلُ استغراب الإنسان الذي يكتشف المعنى الآخر للأشياء. أحلم بالعالم الآخر، ذلك الذي ينبثق من عالمنا. يلذ لي أن أتصوّر انتشائي في العالم ذاك، محاطا بمعاني جديدة تماما. أتخيلُ الاندهاش السعيد للأمه. أتخيّل نفسي هائما في مدينة شبحية غريبة عني، حيث كان يحيا ملايين الناس فيما مضى، أتخيّل الحواري، الأزقة، القناطر، الجوامع، البواخر، كل شيء مهجور، وبينما أنا أخبط في الساحات الخالية والشبحية، أتذكّرُ والدموع في العينين، ماضيَ وماضي مدينتي أنا، وأراني أسير بخطى بطيئة إلى حارتي، إلى السرير الذي كنت أجهد نفسي للنوم فيه. أتخيل نفسي «فرانسوا شامبليون» الذي كان يغادر سريره ليلا ليفكّ حروف صخرة «روزيت» الهيروغليفية، ذاك الشامبليون الذي يَتيه في المنعرجات المعتمة لذاكرتي، مقذوفا في حلم المتسرنم هذا، الدّالف إلى الدّروب لملاقاة ذكريات ضائعة. أتخيلني «مراد الرابع» أتقنّعُ ليلة مّا للتحقق من نجاعة منع الكحول؛ جد واثق من أنه لا أحد يمكنه أن يهاجمني، ما دمت مرافَقاً بحرسي، المقنَّعين بدورهم، تعهّدتُ الذهاب لأرى بأم عيني كيف يعيش رعاياي في الجوامع، في المحلاّت القليلة التي ما تزال مفتوحة، ومن بينهم أولئك الذين يسهرون في محشّشات الأفيون المختبئين في دُروب سرية..

"وإذا كنت لم أستطع أن أنام بعد، أيها القراء الأعزاء، أمسي ذلك العاشق السيء الحظ، المتعقب لمسالك ذكرياته، التائه بحثا عن المعشوقة الضائعة؛ أفتح كل باب من أبواب المدينة؛ وحيثما يدخَّن الأفيونُ، حيثما يجتمع الناس لقص حكايات ما، في كل بيت حيث تُنشَد أغنيةٌ ما، أبحث عن آثار ماضيَ وآثار ماضي حبيبتي. وإذا حدث أن ذاكرتي وأحلامي، التي أجرّها ورائي لم تُنهَك بعد خلال الارتحالات هذه، أتسلل في واحدة من تلك اللحظات السعيدة عند ملتقى النوم واليقظة، إلى أول فضاء معلوم أصادفه، بيت صديق قديم، أو إقامة قريب مهجورة، فاتحا الباب تلو الأخرى، كأنني أعبر المناطق الأكثر نسيانا من ذاكرتي، وألج آخر غرفة، أطفئ الشمعة، أستلقي على السرير، أنام بين الأثاث القديم، العجيب، الغريب".

كان النور الأول المشرب بالزرقة يتفتق في البعيد، هناك، في الخلف حيث تحدق فيه الجبال الداكنة الجاثية في إشفاق وسكون أزلي، والدور البيضاء المتداخلة المعجونة بلا انسجام عند السفح. تعبر حافلة فارغة الشارع الطويل الوحيد في طريقها إلى المحطة المطلة على قاعة سينما فوكس، بسرعة خرقاء، ينظر إليها النادل الذي بدأ يفك القفل عن الكراسي والموائد، يتابع سيرها بعينيه وهو يمرر يده اليمنى على أعلى صدره الملفوف في قميص وردي... انتفضت عصافير الدّوري، كشرارات سوداء، بصخب من قتبان الأشجار، المفروزة، بلا اتجاه، عاليا تنأى عن رصيف الأتربة، أكياس البلاستيك، سحابات الكازوال الراكدة وخاوي الزجاج..

شدّ منديلا على عينيه حتى لا يدعكهما النور الذي بدأ يتسرب رماحا من خصاص النافذة عبر جوانب الستار، باديا الآن. استرخى كأنما كل عياء جسده في دماغه، أحس به ثقيلا وهاويا منزلقا في منحنى مائل بلا قرار. ركب كل أرجوحات العالم، الحديدية، الخشبية، المزينة بالنوّار وغيرها.. تخيل الأقزام وسكون أدغالهم

ومخرهم للعباب واعترف في نفسه بأنهم كائنات وديعة وأنه يشبهها في وداعتها..

— طررررررز....

كان الضاغط الحفّار، فجراً، ينغرز من هذه الأذن لتلك، قويا، يفصد أعراق الدم الدقيقة في دماغه، يفتته بين الحصى المهمّز والاسمنت الصلب، يلوي قلبه، يلويه كي يدور عند ارتخاء القبضة، بشكل سريع، ينفر منه الدم إلى الأمعاء ومن العينين. كان المحركُ يجاوب الضاغط في تناوب لا ينتهي، مشتّت، لا يكلّ. يجرفه المحرك ويهشم ما تبقّى فيه من حطام.

كان ينتحب في صميمه.

وهو يمرّر الماء على وجهه الذي استحال وجهاً آخر، ينظر إلى بالوعة الماء وانسياب رغوة الصابون عبر ثقوب المغسلة بشكل دردوري، تمنى لو كان كرة صابون صغيرة، تسحبها البالوعة مع الماء، إلى أنابيب نائية ومجهولة.

لمن نشرب الأحلام أنخابا... إن لم يكن للدولاب البطيء ؟

پول تسيلان

بقايا امرأة

انفتحت الباب الحديدية الثقيلة على التو، بمجرد ما وقف عند العتبة.

بدت هي من ورائها، ترتدي بلوفرا أسود وسروال قطن أسود كذلك.

كان وجهها كأنما يتوارى إلى البعيد لا يُرى وسط دغل شعرها الأسود الأحرش الملقى مجعدا على كتفيها. لا أثر للاعتناء به، أو لأي نسمة عطر دقيقة، كما كانت عوّدت أنفه على عطور رفيعة تنم عن ذوق نادر وثمن باهظ، في تلك الزيارات القليلة التي تشبه دوريات ليلية لمكان آمن.

مدّ يده للسلام، لم تنتبه. كانت يمناها على حافة الباب والأخرى على حائط المدخل. مدّت خدّيها. قبلهما ففسحت المجال.

— خفتُ، أنا وحدي هنا والوقت متأخر، لم يراودني نوم. ماما غير موجودة. لم يرك أحد من الجيران؟

كان يستمع إلى صوتها المرتبك المصدي من ورائه كأنه آت من بئر، به ارتجافة حزينة، بينما هو يصعد السلم... يتحسس بنعله الجلدي درجاته المتفاوتة، المنحنية، المائلة، المنحدرة... لم يجبها. كان مهتما بما بين يديه. لم يكن بالسلم نور، تركته في غبش الضوء الآتي من صالة ما أعلى السلم المنعطِف مرتين.

— لم تكن قد نمت بعد عندما هتفت إليك؛ قالتها وهي تفتح عينيها المكحولتين.

— لا.. ليس بعد. السهر صديق قديم وأنا كائن ليلي. أنت وحيدة فعلا! كان البيت مهجورا ورطبا. فناء واسع خال إلاّ من أرائك بُنية قليلة دفعت إلى أقصى الزاوية تماما. تخفف من البلاستيك الأسود بوضعه على الطاولة الزرقاء القانية العريضة نسبيا والفارغة كليا. أخرج زجاجتين وثالثة لأولماس، فستقا، لوزا محمراً وعلبة سجائر.

أمرته بالجلوس على إحدى الأريكتين المتقابلتين في غرفة يتقاسمها النوم والجلوس مناصفة. موكيط بُني كذلك مشرب بالبرتقالي. عاكسُ نورٍ خافت مشرئب إلى الزاوية، على ساق حديدية طويلة، عند قدم السرير، سريرها، المغطى بإحدى ملاءات الشمال الصوفية، تلتقي عليها أشكال وردية وأخرى حليبية. جدران صفراء مفتوحة علّقت عليها مرآة كبيرة، صور عائلية صغيرة الحجم، مقصوصة أغلبها لبنات بألبسة استعراضية، شورطات، ملابس داخلية ملونة، مايوهات... موضوعة في إطار كبير أيضا. على الجهة الأخرى عند السرير، صورها هي، عريضة، بإطارات أحسن، تبتسم فيها جميعا وقد تغير لون شعرها وتسريحاته من صورة لأخرى. بضة وجميلة كانت. تغدق على الداخل والأبد بابتسامات كان المصور قد اقترحها عند أخذ كل خطيفة، في هيئات متنوعة...

دخلت إلى الغرفة وهي تحمل كأسا وصحنين صغيرين ومنفضة خشبية كبيرة.

— أين أخذت هذه الصورة؟

— بإسبانيا.. من سنتين تقريبا، عندما زرت أختي بمالاقا..

جذبتْ كرسيا قصيرا إلى جانبه يمينا عند الطاولة. ضغطت على زر المسجل فجاءت موسيقى شرقية كئيبة بصوت جد خافت.

- منذ أكثر من سنة لم أر لكَ أثرا

- ولا أنا.. اعتقدت أنك سافرتِ إلى مكان ما..

غطت قدميها الصغيرتين جدّا بجوربين برتقاليين عليهما نقوش وخطوط بالأزرق والرمادي..

- أتعرف أنني قانطة جدا.. وحيدة، ولا تزورني أي من صديقاتي.. لم أعد أرى أي واحدة منهن

- طبيعي، لأنك لا تخرجين ولا تبحثين عن صلات بصديقاتك

- أين تريدني أن أذهب في هذه المدينة، مدينة المقاهي والبركاكا.. لقد اشتغلت مؤخرا مع صديقة في الصالون.. وتعرفت على فتيات يأتين هناك أجْمعْن على أنني ظريفة..

وضعتِ الكأس فارغا ثم اشعلتْ سيجارة مارلبورو خفيفة..

- أتعرف أنني لم أتناول شيئا أزيد من يومين.. لا شهية لدي إلا للقهوة السوداء، وقد احتارت ماما في أمري..

- بهذه الطريقة، تقتلين نفسك

- ماذا أفعل، لست مرتاحة لشيء، أو لأحد. نفثت الدخان وهي تغير شريط الموسيقى.. ثم تابعت بحزن.. أنا حيرانة جدا لا أعرف ماذا أريد، أقضي الساعات لأعرف نفسي، أريد أن أعرف نفسي

- لا أحد يعرف نفسه

- ولكن الحياة؟ يمكن أن نعرف الحياة! إذا عرفنا الحياة انحلت المشاكل أم لا؟

- لا أحد يعرف الحياة. ثم لا شيء فيها يجب أن يعرف. كل ما في الأمر أن وضعنا النفسي هو الذي يحدد نظرتنا ومحاولة فهمنا لهاته الحياة.. عليك أن تخرجي قليلا، أن تسافري.. ألا صديق لك؟ خذي مثلا، هذا واحد من الأمور التي تنسينا أحيانا تعاستنا..

- لقد نسيتَ أن تضيف لي الألماس، أنا أحبه بكمية كبيرة. أشعلتْ سيجارة، لمستْ حبة لوز ثم تركتها. لديّ صديق، يزورني مرة مرة، هنا أيضا، يحبني ولكنني لا أشعر اتجاهه بأي شيء..

- لا شيء؟

- يعني أنني غير متعلقة به. فتى وسيم، لطيف، لا يردّ لي شيئا ولكنه لا يعجبني.. قلت له في الأسبوع الماضي حقيقته، بأنه حمار، لأنه ابن أبيه. لا شخصية له، يفعل ما يأمره به أبوه.. قلت له أنا صاحبتك أنت لا صاحبة أبيك. مارْضاشْ..

- وماذا قال؟

- يشويتي فيه، لم يرد.. قال لي ساعديني لكي أعرف نفسي..

- له إرادة في أن يتغير ولماذا لا تساعديه؟

- ومن يساعدني أنا آخويا؟.. كيف أساعده وأنا لا أعرف نفسي؟

- عجيب!

- جاء الأمس إلى الصالون -ذكرتْ عنوانه ولكنه لم يأبه لذلك، ومع تغير أسماء الأحياء والشوارع مؤخرا، لم يكلف نفسه عناء السؤال — وجدني جالسة لأصدقاء يدرسون في المؤسسة الحرة، قرب الصالون، أدخن معهم سيجارة وأشرب قهوتي، كإخوة فقط، يطلبون مني ذلك، أقبل، ولكن بهذا الشرط دائما: أنا أختكم، فغار منهم!

- طبيعي، لأنه يحبك كما قلت.. ويطلب مساعدتك.. ليس من الضروري أن تقولي له ماذا عليه أن يفعل، ولكن حاولي أن تتفهّميه، أن تستمعي إليه، أن تكوني بشكل آخر، كيف يمكن له أن يتصرف من تلقاء نفسه وهو ممزق بينك وبين أبيه، إن الرجل في حالة صعبة، والأمر فيه أنانية من طرفك..

- إيه آخويا.. صحيح، أنا أنانية!

- أرأيتِ؟

- ولكنه ابن أبيه -ضحكتْ ملء فيها. أريد رجلا قاسيا، يعذبني.. شي واحدْ دينْ أمه اهْبيل، بِخِيرْ، امْوَضَّرْ، ماشغلوشْ.. وضحكتْ كثيرا.

- لم لا ترقصي؟ أنت تتقنين الرقص الشرقي.. ثم هي مناسبة لعل شهية الحياة تعود إليك..

- لا! لا رغبة لدي.. أتعرف، أنا أحب الرقص، الرقص هو حبّي. أريد أن أذهب إلى طنجة لأشتغل راقصة.. ولكنني خائفة!.

- إذا كان المكان محترما وتعملين كفنانة محترمة، لم لا؟

- لا أستطيع. ولكنني أفكر في أن أكون مديرة للرقص الشرقي بإسبانيا. وطنجة جميلة، أليس كذلك؟ لم يسبق لي أن زرتها من قبل.. ولكنني لا أعرف ماذا سأفعل في الليل.. إني أفكر كثيرا.. لا آكل ولا أشرب، أقضي وقتي في التفكير وسأقتل ماما بحياتي هاته.. فكرت في مصر، ولكن فِينْ غادي نْبان قدام فيفي عبده والأخريات؟!

غادرت الغرفة. تدفق صنبور الماء رخيا لمدة طويلة، متقطعا بحركة من يديها بين الحين والآخر، كانت تغسل... شيئا ما، غمرته رائحة الصابون والماء وهو يرنو إلى صورها من جديد دون أن يبرح الأريكة.

كانت جميلة فعلا، تتدفق حياة والنار تملأ خدّيها ووجودها، أو على الأقل هكذا كان يبدو الأمر. هيأ لها الكأس الأخيرة من القنينة الأولى، مزجها بأولماس كثير وأشعل سيجارة..

عادت..

ثم استقلت على سريرها، في الوسط، موازية للمخدة الطويلة الملونة بالأصفر، الأبيض والأزرق. جذبت الطاولة وأمرته بأن يجلس على السرير ليتحكّم في الأشياء على المائدة.. استمعَ إلى صوتها من خلفه يردد مع الشريط:

الكلِمة الحِلوة ما بين اثنين

الكلمه الطيبه بِتكون أجمل هديه للقلوب المِتْعذبه

أنا قلبي عمره ما يتحوّل

يشتاق في الآخر والأول

يا حياتي بحبك من إمْتا

وما ليش غيرك إنْتا

جلست بالقرب منه. أحس بفخذها الضامر يلمس ركبته اليسرى. نظرت إليه ولاحظ أن فكّيْها كانا أكبر مما يجب. لم يشعر بأية حرارة. انتبه إلى أنها ترتدي سروالين، كانت كأنها أبعدته بمسافات، أخرجته من اشتعال حجر ملتهب ومرّغته في سيبريا عالمها البارد والجارح بصقيعه رغم الحرارة التي بدت تدب إلى جسدها، إلى جلدها المنهمك في الدنوّ من هيكلها الرطب.

- لم تعطني الحياة ما أريد

- أ تعرفين أحداً أعطته.. قالها بمكرٍ ليهدهد حزنها العميق.

- هل يعجبكَ راغب علاّمة

- أحيانا. هل تعرفين أنه أتى إلى الدار البيضاء؟

- لا! في حياة رجنسي؟ لكنني لا أستطيع رؤيته عن بعد، لمجرد الرؤية، أو الحضور إلى السهرة فقط.. هو وكاظم السّاهر، أريد أن أرقص أمامهما، أن ألمسهما، أن أبوسهما... ناري، نَحْماقْ.. هادوك مَن لكبار عندي واعْزازْ عليَّ..

وصلت الحرارة إلى صدرها الذي تحرك فجأة وهي تخال نفسها اللحظة في حضرة أحد المطربيْن، أو هما معاً؛ الذي انتفض على إيقاع الأغنية، ألقت بلَوْزة إلى فيها، تحرّك شعرُها وفكّاها بشكل متوازٍ

- أتعرف أن حبيبي الوحيد هو الرقص، لا أعرف كيف أغني، ولكن الرقص.. آه، لو كانت لديّ فرقة دينْ أمّْها بطوريّ مولينوس؟ وأنا الباطرونة والكل بانتظار لحظة الخروج.! عليّ أنَ أفكر في تحضير ملابس ذلك من الآن.. وأن أختار الألوان المناسبة.. لن أتزوج.. أتعرف.. لأن حبي الوحيد..

—— هو الرقص

—— أنا أحب لأمُورْ، لأمورْ وحده، لامورْ والحياة.. ناري

ازداد توهجها.. تركتْ جزر الحزن واستراحت لشواطئ قارّات تيه بيضاء، نائية. أراحت عليها خدّها وهي تنظر خلفها عبر خصلات شعرها المبلولة وأهدابها المملّحة لآثار قدميها الصغيرتين على الرمل الذي يغطيه الزبد الوردي.. لا يمكن لأية قوة خارقة أن تستردها اللحظةَ مما هي فيه.. شعرت أنها أميرة بحر وسائر حيتان العالم تتعقب أناشيدها في موكب كرنفالي خرافي متناسق في جوف المياه الخضراء الصافية، الزرقاء المشربة ببقع الشمس المتلألئة على حراشفها الملساء، تدور، تهتز، تعاود الاستدارات البهلوانية على حبال خبّازية تتعلق بها

عيون الكائنات في صمت انبهارٍ ودهشة، وهي ترمق إلى الرائع منها في غنج وانكسار عاشقيْن، تنثال عليها، تسهو عموديةَ النزول، تلامس الرمال المدقوقة والاصداف الملونة، ولا تبرح زهوها المبرقش النادر، هناك حيث تمتزج أخلاط الحب والخلود والأناشيد، تتعلق بأهدابها النباتات الجوفية اللّزجة وتبعدها، في مشاكسة، بنعومة ظاهرة أو تنعطف لها بحنو وتبتسم وتعاود الابتسام ناثرة قهقهات لا دويّ لها ولكن التي ترتج لها أوتار القلوب، وتخلق اللغةُ من ذاتها لغة أخرى، لا عنف فيها ولا خبث ولا أحشاء كظيمة..

أحسّ برأسها خفيفا كورقة شجرٍ على ركبته اليسرى، كانت مستلقية على بطنها. نظر إليها وهو يشبك كفّيه، قبل أن يجذب الوسادة، وراء رأسه، بالقرب من قدميها. استفاق لنداء كأس وسيجارة، ولأن هذا الوضع المريب لم يزده إلاّ إحساسا ببؤس العالم وبعزلتها هي في هذا البيت المخيف فعلا. كان ظهرها بعيداً عن أن يحرك دواخله، لشدّ ما كان مشفقا عليها. ودون أن تتحرك هي قالت بلا مقدمات:

— أتعرف أنني كنت أحب امرأة؟

— منذ متى؟

— طول هذا الوقت الذي انقطعتُ فيه عن الحياة

— لم تنقطعي عن الحياة، كنت تحيين وجها آخر من وجوهها.. كيف كانت التجربة؟

— رائعة

— من كان منكما الرجل؟ وتدارك: إسمحي لي هذا السؤال الغبي

— لست أدري ، ربما هي... هي

— هل أحببت ذلك؟

— ناري

— وما الفرق بينها وبين الرجل؟

— فرق كبير

— كيف؟

— كانت حنونة علي -قالتها بنبرة بكائية. تقول لي أشياء لا تفهمها إلاّ النساء فيما بينهنّ. وكانت شرسة وكانت قاسية وكانت تحبني بمعنى الكلمة..

— وأنت؟

— لهْبالْ. لا يمكن لي أن أحكي لك - قالتها بفرنسية متعثرة- كنتُ أعبُدها، ما شعرتُ بالحب إلاّ معها. كانت تأتيني ليلا دون موعد أو تلفون.. وأنا.. لا أستطيع أن أردّها.. كنت أخافها وأشتاق إليها.. لو كنت وحيدة لعشتُ معها.. ولكن ماما.. ماما.. لم ترد.. كانت غادي تحماقْ.. لم تر العائلة مانعا.. ولكن ماما تريد حفيداً لها.. أن أتزوج.. وإن فعلت فذلك فقط نزولا عند رغبتها.. لم يعد يعنيني الرجال، ولكن ماما.. لن أرفض لها طلبا..

— لا عيب في ذلك، مادام الأمر يرضيك

— كل الرجال يقولون ذلك، بما أن مشهد امرأتين يمارسان الحب فيما بينهما يروق لهم..

— ليس بهذا المعنى..

— لشدما أشتاق إليها الآن. ثم صمتت وقتا طويلا. لستُ أدري أين هي، لقد انقطعت عني أخبارها.. لذلك سأسافر إلى السعودية

لكي أرقص.. لكي أبتعد.. أنا عرفتُ الآن أن الرقص هو حياتي، لذلك هيأتني الحياة. لم أتعلم شيئا سوى الحلاقة والتجميل، وقد قنطت من الصالون، حَالْتو آخويا..! ولكنني خائفة.. كيف أحمل حقائبي.. والليل.. أين أروح؟ لا تجارب لي.. وعالم الرجال في الليل مخيف.

"حرّمت أحبك.. أحبك

ما اتحبّنيش.. آها.. آها...

ولد شغلني ولد حايلني.." كان شريط الكاسيط يقول بصوت رخيم، وصمت الفجر يمتص كل الحركات إلى الدواخل.. مليئا بالحزن والدمار والعنف وهي وحيدة.. حفنة لحم تأكل من نفسها.

كان أريج شجيرات الليمون منكبا على تقطير ماء ورد يزفّها لنوم عسير غازلتْه بكل الذكريات الجارحة والأحلام الطائرة وهذا العذاب الجوّاد على أمثالها.. ساهرة بعزلتها لا يعبأ بها إلاّ هذا الجحيم الفريد الذي يمرّغها في طحين الوجع.. هل طالبت الحياة بشيء ما كبير، الحياة المطلقة الساخية العميقة المتقلبة؟. هل أشهرتْ في وجهها سوطا أو كلاماً بذيئا، هي اللطيفة فعلا لطافة حلزون عذّبه توق الجناح والتحليق ولا هو بمستطيع.. ثمة عطب ما في الحياة إذ لا تسخى أحيانا.. في الطبيعة التي تشد يدها أحيانا.. في الشرائع الغريبة لفقدان الشهية، عسر الهضم، صعوبة أن يحب الإنسان ما يشاء وأن يعلن ذلك.. أليس العالم مليئا بالصديد والأورام التي لا بلسم لها في الصّيدليات؟

طلب منها الإذن بالانصراف. رجته أن يقشر لها ليمونة مدّتها إليه بعد أن عادت من الفناء، بأصابع رجفانة وبليلة. وقف بعد أن كان في الأريكة مدفونا ينظَر إليها، ومدّ لها يداً لا تسعف لأي نجدة حقيقية.

أمسك الليمونة. هيأها. نتفت فرعين صغيرين بصعوبة. مصتهما وألقت بيقيتهما في المرمدة. عيناها مغلقتان، ودون أن تنشف أصابع يديها، شدّت رأسها المكبوب إلى الأمام، الرأس المزلزَل بآلاف الخواطر والطموحات.. توسّل إليها أن تنام.. أن تستريح قليلا، أن تهدأ.. لأن هذا العذاب عديم المعنى، ولأن الأمر لا يستحق كل هذه الكآبة..

إلتوتْ في مكانها، بحركة آلية، لكن بادية المجهود، وهي تغمغم:

— لقد تقيأت كل شيء من قبل...

— حسنا فعلت، ذاك ما يستحق العالم.. استريحي أنت، أما أنا فسأنصرف بعد حين.

— إبق قليلا، لا تطفئ الضوء، أرجوك.. أخاف.. كم الساعة الآن؟

— الخامسة إلاّ الربع

— إبق حتى الخامسة والنصف.. أو نم ها هنا.. أنت عزيز علي، تعرف؟

— لا تخافي.. النهار طلع.. ثم.. ثم.. أنا لي موعد في الصباح.. نامي.. سأنظف كل شيء.

— لا، لاداعي.. ستعود ماما متأخرة في المساء.. سأفعل ذلك صباحا.. لو كانت.. لو كانت معك قطعة حشيش!

— تعرفين أنني لا أدخن ذلك..

— أعرف ولكن..

سحب ملاءة ذات خضرة زجاجية إلى حدود كتفيها، كانت مولية وجهها إلى الجدار.. غطّى المثلث الذي رسمته برجليها وهي تنشد لحظة استرخاء.. لم يكن له أي علم بالعالم الذي أنزل خذره

عليها الآن وانسلت إليه باستسلام.. نظر إليها مليا، ثم إلى الجلاليب الملوّنة العديدة المعلقة في المشجب الخشبي عند رأسها، من قطن وجيرزْي وحرير.. أعاد النظر إلى صورها.. فألْفاها شاخصة، منتعظة بالحياة، تلتمس التوثّب من إطاراتها.. تداوم الابتسامات التي، نكاية في الزمن، تهيج صمت الليل والجدران والقلب رزمة الذكريات، ولكنها تشهد كذلك على نَغَل الجرح وعلى تهشم الجسد من الجدوبة واستحالته عفرا تسحوه الريح وتبرحه أرضا صفْصفاً ملساء.

قام.. ترك النور مشعلا.

وعلى الدرجة جاءه صوتها:

— أغلق الباب جيدا. ثم: — كلمني إذا استطعت

هزّ رأسه وتدحرج في صمت عبر السلّم.



الدنيا هانيه

هيأ كل شيء، السلاطة بالفجل والطماطم والخل، البيض المسلوق، السجق والنقانق، الزيتون بنوعيه، الحارّ الممرّغ في الفلفل الأحمر الحادّ، والحامض، الخيار على شكل دوائر بلا لب، الفشار المملّح والجبن الأصفر مجزوءاً مربعات صغيرة... وضع كل نوع في صحن معين.. اختار ألوان الصحون بحسب ما تحتويه.. وازى بينها بحيث كرّر كل نوع مرتين.. كما اختار المناديل وكؤوس الماء الكبيرة الملونة، وكأسين صغيرين قبل أن يقرر الاحتفاظ بواحد منهما فقط. وزّع ذلك بشكل يوحي بخبرة، بذوق وبطول باع في هذه الغزوات، على مائدة الألمنيوم المنقوشة المدورّة والعريضة. رجع خطوتين إلى الخلف، هزّ يديه بمعنى أن كل شيء تمام. لا! تنقص المنفضة، ثم تذكر أن النور فاضح زيادة عن اللزوم، فظ.. فكر في الشمع، ثم بدا له أن عاقبته وخيمة، خاصة وأنه لا يأكل وهو يشرب الأشياء.. فخاف من الطيّارة. أشعل الأباجورة الركينة وألقى عليها منديلا أزرق، ورديا فأحمر، استقر على الأحمر، رغم أنه ذوق كلاسيكي، قال في نفسه، لا يهم، فهي لن تنتبه لصغائر الأمور هاته. رتّب أشرطة الموسيقى درجات، حسب حالات الوعي وسُلّم الانتشاء، والعين ميزان.. عاد مرة أخرى إلى الخلف، فاطمأنت عيناه: عشاء أُوفيسْيال!

دخل الحمّام. تطلّع إلى وجهه في مرآة المغسلة الناصعة البيوضة، زاد اطمئنانه، مرّر سبابته اليمنى على جفنه وهو يقترب من المرآة أكثر

تحت ضوء المغسلة الأصفر. تراجع. فتح الصنبور. غسل أسنانه، خدّد شعره بأصابع يده اليمنى. دَعَكَ وجهه بالماء المنساب، ثم دفنه في المنشفة للحظة. عند الدولاب غيّر قميصه وجواربه، أخضر حريري وبيضاء. كان يزرّر قميصه وهو ينظر إلى المرآة الكبيرة المشدودة إلى وسط الدولاب بمسامير صفراء غليظة، يحرك وجهه ذات اليمين وذات الشمال ويتملاّه رخيّ البال، يبقي على عينيه لاصقتين بعينيه داخل المرآة وهو يدور نصف دورة ليرى وجهه وهيئته من زوايا مختلفة. هذه المرة، وثق من نفسه أكثر. تعطّر. نظر إلى ساعته. مسحها بحركة سريعة من إبهامه. عاد. أطفأ أنوار الحمام، بيت النوم وغرفة الجلوس. وحدها الآباجورة بقيت ساهرة على استيهاماته وعلى المكان، تضمّهم إلى نورها الأحمر وهي تنتظر وتقصي كل ما لا يدركه نبع نورها. كان وجهها هناك وصدرها الصغير.. مازال يذكر تقاسيمها الكبرى رغم أنها وقفت أمامه ثواني فقط عند شارع «آيت تسْليتْ»، عرفت فيها عنوانه — تقريبا — ، أعطاها ما أعطاها وأخذَت، ثم وعدت بالمجيء متأكدةً من أنه رجل خجول.

لما نقرت الباب نقرات خفيفة مرتبكة، كانِ وقت الموعد قد فات بدقائق، لكنه كان متأكداً من أنها ستأتي.

تفضلت. سار وراءها في الردهة وهو يشق الأريج الفاضح الذي يخلفه جلبابها القرمزي ويدير، مزهوا، خاتم المفاتيح العديدة في يده، ترنّ وتحدث صرصرة مسموعة.

خيّرها بين مكانين. اختارتْ وجلست.

غير بعيد عنها جلس. مدّ لها سيجارة أمريكية، فاعتذرت موثرة سجائر الكازاسبور. اندهش. نظر إلى لثتها وتذكر بغتة وجه المرحوم والده الذي ما برحته يوماً قوة تبغ الكازاسبور، فخفت فيه شيء ما.

عاد. أغلق الباب، ووضع أمامها علبة «المغرب» وهو يسألها إن كانت تُمانع في مجيء أحد أصدقائه متأخرا..

— الدنيا هانية..

فرك كفّيه، استخرج لوازم السهرة، الزجاجة، المفتاح والموسيقى. فاقترحت الرّاي عوض محمد عبد الوهاب. لم يكن الرّاي ضمن برنامج الأمسية ولكنه لم يمانع، لا يهم.. ربما لا داعي للاستماع الآن لطول عمري عايش لوحدي..

كانت الصحون قد فرغت تقريبا ودخان التبغ قد غمر الغرفة، لما فرجتَ فتحة جلبابها قليلا.. وهي تقول:

— الله يلاقينا مع أولاد الناس.. مجففة بمنديل الكليناكس مرجة حمراء على المائدة عند أسفل كأسها. لاحظ أنها تسرع عملية الصب وتدلق الكأس ساجرة دفعة واحدة في بلعومها، ثم تحكها برؤوس أسنانها السفلية، يمينا وشمالا وتضرب قاع الكأس بأعلى الزجاجة قبل أن تضعه نهائيا على المائدة بارتطام عنيف وهي تحرك رأسها مع إيقاع الرّاي.

كان يتابع حركاتها باستغراب، الله يجعل العواقب سليمة! قال في نفسه.

— ما عندكش السردين ؟ يعجبني الطّون والفلفل الحار !

لم ينتبه لسؤالها، كان مشغولا بشيء آخر، وكانت تنتفض بنصف جسدها العلوي كلية وهي تبعد إحدى المخدات القليلة المتناثرة، من وراء ظهرها، وتلقي بالشبشب المنقّط بالأزرق والمحفوف بشريط صوفي أبيض، وقد نفجت ربلةُ رجلها اليسرى من فتحة الجلباب.

امتقعت بشرة وجهها المشرب بخضرة خفيفة. كانت قد فكّت عنها كمّيْ جلبابها وشَلَحتْه إلى حدود الحزام، دون أن تنضوه تماما.

سألها إن كانت من بني ملال، حتى يستدرجها لهدنة مستحيلة، ويخفف من غلواء الكواسر فيها:

— لا، أنا من النواحي. أتيت عند خالتي.. وترددت قبل أن تتابع.. هي تعرف الفقيه الذي سيكتب لي.

احلوّت القعدة تماما.

— هل الأخت لها مشاكل؟

— لا ما شي مشاكل إلى ذلك الحد! فقط أحس بأنني مسكونة قليلا.. وأنه لا يفارقني..

— هو من؟

— بوغطّاط.. ماشي بوغطاط المعروف.. هذا خطير.. هذا.

— كيف؟

— يحرم علي كل شيء. طلّقني من زوجين وأتعسني وما يزال.. لذلك أحب أن أنشط حتى أنساه.. ولد الحرام.

ازدادت ريبته وقلّ أمل خروج العاقبة بخير.

— أتعرف أنه يأتيني خلال النهار والليل، لمدة ساعات، وأنا أتعذب. لا أتحرك كأن بي قطاع اللحم. أشعر به تماما كأنني مع رجل.. يأخذني في المرحاض وفي الطاكسي وفي مناسبات العزاء، يأخذني من الخلف ويضغط على قفاي، حتى أنني لا أستطيع الحراك..

ساعات، أحيانا يفسد علي الصوم، يبللني تماما.. أنا مسكونة..

استفاق الرجل كمن صُفِع بخبر مشؤوم. مسح المائدة بعينيه وهو يفكر لثانية في الهباء الذي راح فيه كل شيء. وليطمئن نفسه، قال لها بادعاءِ المتيقّن:

— هذه أمور سيكولوجية.. مجرد وهم فقط.

— عن أي وهم تتكلم، أنا أشعر به فيّ وتقول لي وهما، الشهود معاي والكل يعرف ويعيرني به.. لو كان فيك أنت لكنت في القبر.. أيٌّ سيكوك؟

كان كلامها ينتف منه آخر ثمالات الرغائب القصوى، يخيفه ويقصيه.. ما معنى بوغطّاط؟ ما هيأته المادية؟ هراء.. ودّ لو هرب، لو كان في قفر بعيد. أحس بأن كل شيء بات يؤلمه وأنه خائب ومحبط. عزّى نفسه بعشرات الأفكار الطائشة والندمانة وغير المُتَروِّية.. نكَّبَتْ به تماما عن الرغبة التي رعاها منذ اللقاء بها في العصر..

— طُلِّقتُ مرتين، قلت لك..زوجي الأول كاد يجنّ، أنا أتفهّم هذا، أنا مملوكة، أنوح الليالي بكاملها، يهزّني الزلزال واستنجد.. يشعل الضوء ثم يتركني لحالي ويفرّ إلى أحد أقربائه. والثاني «هزّ راسو» ولم يعد.. الله يحسن الأعوان..

— ولم تذهبي لأي طبيب نفسي؟

— أنا أقول لك لم يقض حتى الفقهاء الكبار وحلقات الجذبة والأبخرة، وأنت تقول لي طبيبا.. قالت خالتي أن هذا الفقيه يجمّد الماء.. وأنه هرّب رجلا وأخلاه البيت بأن سلّط عليه القمل، عندما تحرّش به صاحب البيت الأصلي، لأنه لم يدفع له الكراء لمدّة سنة... اطلب التسليم! ثم قبّلت يدها وجهاً وقفا ولمست جبهتها باليد ذاتها.

وقف دفعة واحدة. نفَّلَتْه وزيادة.. كمش مفاتيحه بحركة عصبية من يده اليُمنى. فتح النافذة والباب المسلم إلى الحارة مباشرة بعد أن خفّض صوت الموسيقى. فكّر هنيهة وهو يشعل سيجارة بارتباك عند العتبة.

عاد. سمعها تئن منبطحة على بطنها وتنغي. تشابكت آخر الأوتار فيه مرتجة. خرج من الغرفة. خاف أن ينتبه إليه بوغطاط ويطالبه بما لا تُحمد عقباه حتى يؤكد له بالملموس صحة ما قالت.. ثم من يضمن له سلامة طوية بوغطّاط؟

كان ينظر إلى وجهه طويلا في مرآة الحمام.. فتح الصنبور بلا مبرر.. عاد ثانية إلى الغرفة.. وجدها مستوية..

قال لها أول فكرة خطرت على باله.. قال لها بأن صديقهُ تأخر.. قال لها بأنه مات، قال لها بأن عليه أن يذهب إلى الكوميسارية ليعرف ماذا حدث.. اندفعت جملٌ أخرى متقطعة، تتخللها حركات متشنجة.. راودته رغبة في تكسير الصحون وتمزيق أزرار قميصه الحريري.. أغلق الشباك، لبس الحذاء، أطفأ المسجل و.. و.. و

— الدنيا هانية آخويا.. الله يلاقينا مع أولاد الناس..

رغوة الأرصفة

كانا يتمليّان الشارع المغبر. أحدهما يحتسي قهوة والثاني يشرب زجاجة ماء معدني صغيرة.. في صمت لا تخدشه إلاّ كلمات معدودة.

كان ذلك قبيل المساء، لما خفتت قليلا شمس يونيه الحارة وتدافعت طيور السنونو تمزق صفاء الزرقة الظاهرة بين بنايات شبه متساوية الارتفاع ومختلطة المعمار.

هذا هو الشارع الوحيد تقريبا الذي يتكئ على طول المدينة. على ضفتيه تتقابل أشجار النارنج القصيرة التي تنتشر وراءها المقاهي المختلفة الأسماء والألوان والأثاث والزبائن، التي تأكل من تينْك الضفتين رويدا رويداً، لتنكسر الراجلات اضطراراً إلى الطريق وسطَ السيارات المخدّرة والمسطولة.. وعن هذا البعد تستوي المشاهد كالمروج، ويتعلل الذكور بالبحث عن رقع ظل وهواء ينشرون فيها أقدامهم وسيقانهم وقد فتحوا على التو أزرار أعلى قمصانهم واستأجروا جرائد وصحفا لتعبئة كلمات متقاطعة أو مسهمة أو هما معاً، أو استنسخوا الرقعة فقط وتبادلوا أخباراً قصيرة وتعجبوا لأشياء كيف حدثت ولأخرى كيف لم تحدث، ثم نظروا إلى أشكال العجيزات، الرقيقة منها، المتدَلية، الفائضة، المثلثة، الخرافية وغيرها.. ونهشوا بأعينهم صدوراً وأشياء مهرّبة تحت الجلابيب، ثم لعنوا زوجات وأزمنة تزوّجوا فيها، وعادوا لانتحال أعذارٍ مكتفين بالحسرة والأسى.

تلك واحدة من الأمكنة التي حرّرها الرجال، حاصروها وحوصروا بها كالمارستان. تشد إليها الرغبة بعد نهارات مترعة ببؤس التكرار وجفاء الأحلام. كأس قهوة، يعاد تسخينها أحيانا، بعد قضاء حاجة أو صلاة، هي المشروب الصالح لهذه الأمكنة. وتتحلق على الموائد ظهورٌ محنية أو أفواهٌ لواحم في رؤوس لا تتعب عيونها من الذهاب والإياب، يمينا وشمالا، ساعات طويلة، وهي تعرّي، تحفر، تنهش، تتهم، تحاكم وتجلد..

كل شيء هنا يتم عن بعد.

لذلك قلّما تؤنّثُ هذه الأمكنة، أو يسمح لآمرأة بعبور هذه الأسراب من الذكور، المنتشرة جحافل على أرصفتها.. لا، قد يحصل.. صحيح.. إذا كانت من خارج المضارب.. صحيح.. لا مانع.. في أن تجلس بالداخل وتشرب عصيراً حتّى.. صحيح! إذن لا تهديد أو توسع يمكن ارتقاب حصوله في الامبراطورية التي عمّدها أحد الشعراء المغاربة في زيارة قصيرة للمكان، بالجملة الشعرية التالية: "بين خصيتين وخصيتين، خصيتان". ليكن!

ها هما يتملّيان الشارع المغبّر على الدوام.. بعد أن جلسا إلى مائدة بوسط الرصيف. كانت الوحيدة الشاغرة لما ترجّلا من الطاكسي الصغير، قبيل حين.. يتحدثان الآن بصوت جد مهموس.. بكلمات معدودة، ثم يصمتان، كما قلنا.

— إسمح لي أستاذ، هل بإمكاني أن أجلس معكما فترة وجيزة؟

— آه.. تفضلي.. قال أحدهما دون تفكير كمن صفعته المباغتة.

وضعت كيسا بلاستيكيا أبيض، يحمل علامة صيدلية معينة بالأخضر، راحت. تقابلت نظراتهما.. كانت إذن تجلس خلفهما، في الخارج، بمحاذاة الزجاجية البنّيّة الكبيرة، الملأى بملصقات إشهار

شركات الأسفار السياحية. تساءلا إن كان أحدهما يعرفها، أو سبق أن رآها. عادت. فسحا لها مجالاً لتضع كأسَ عصير شيءٍ مّا بالحليب، كرسياً، مثبنةً يدوية في حجرها ومذكرةً تحمل تَاريخَ سّتَ سنوات مضت، مخطوطاً بالذهبي.. ولتزرع على المائدة ابتسامةً متردّدة..

— اسمحا لي، لقد تجرأت عليكما. وقبل أن يضع أحدهما كلمة وراء اعتذارها، أردفت وهي تقصد الجالس إلى يمينها: لقد شاهدتك اليوم صباحاً وأنت تتحدث إلى شخص لي به سابق معرفة، في مكتب، بالإدارة التي زرتَ صباحَ اليوم.. هل تذكر؟

— آه طبعاً.. أهلا وسهلاً..

ابتسمت مرة أخرى.

صمتت وهي ترمق في شبه ذهول مكشوف إلى صفحة المائدة الزجاجية المؤطرة بضفائر رقيقة ومتوسطة من القصب الصيني المتين.. كانت شفتاها العاريتان من أي طلاء، الغليظتان، تشطران وجها غارقا في البنّي المحروق، أصابع يديها غليظة أيضا، تخرج من امتدادات جسد متين ملفوف في قطعة قماش متصلة إلى حدود نصف الرّبلة، تملؤه نوّارات صغيرة، من حجم واحد، بالبرتقالي، البنّي والأصفر الترابي... شربت جرعة قصيرة. جذبت قدميها قليلا تحت مقعدها وهي تدسّهما في نعلين غليظين ينمّان عن ذوق بلدي...

— إسمحي لي لقد نسيت أن أقدم لك الصديق.. فنان

وقبل أن يضيف صفة (فوتوغرافي)، وضعت نقطة وقالت:

— أنا أيضا.. فنانة. الصدفة؟

— فنانة؟ تشرفنا..

كان مظهرها يؤكد ذلك بنسبة عالية... رائع، قال صديقه، ترسمين؟

— لا، أغنّي.. أنا أقرب إلى الغناء.. وزادت أن كل أنواع الغناء تتقنها.. جذبت الكرسي قليلا إلى ناحية الذي رأته في الصباح واعتقدت أنه أستاذ.. شارفت بركبتها اليمنى ملامسة ركبته. ودون أن تسأل قطعتْ حيرتَهما بصوت بدأ مهموساً وصار يعلو.. "طول عمري بخاف من الحب وظلم الحب"...

تابعت الموائد القريبة غناءها، وبقية الرصيف تنظر إليها وهي تغني، وتغبطهما على ما كانا فيه..

يطول المقطع في أذنه.. يقول في نفسه، الدنيا هانية. يهز رأسه مرّات ليؤكد لها أنه يتابعها بكل ما تستحقه من اهتمام. تستطرد وتعيد المقطع. طال. قال لها متردداً بأن لها صوتا جميلا علّها تتوقف، تردُّد من يضع أصبعه في ثقب عقرب. أخرجها من الحال التي كانت فيها، ابتسمت ثم عادت في الحين إلى حالها وهي تطبق جفنيها بارتخاء شديد البطء.. تعاود الابتسام وتزيد من رفع صوتها، والرصيف مازال يغبطهما على ما كانا فيه من عز..

تتوقف وقبل أن يكوّن أحدهما أقصر جملة، قالت بأنها في العمق، تفضل درجة أخرى في سلّم الأغاني، وبأنها ترجو أن تعرف رأيهما في مدى ملاءمة صوتها لهذا المقطع الصعب، فغنّت بصداح "أراك عصيّ الدمع".. وهي تبتسم للجمهور واقفة ترتعش من شدة جذب الصوت من الأعماق بقوة، ثم تذبّل عينيها، تمسح جبهتها بمنديل أبيضِ من يمناها.. تعاود الابتسام، استحال الرصيف دار أوبّرا، تبرح ذاتها، تغرق وتبدو عودتها مستحيلة مؤكِّدة أن من كان في حالها لن يعود حتما. كانت تكتشف الأصوات وتجربها، وعندما وجدتها انجرفت فيها إلى الأقصى. تضع يدها اليسرى عند صدغها وتغلق عينيها في انخطاف، وكان الظل قد تسلق جدران الشارع عندما أنهت بعض ما كانت فيه.

رشفت من كأسها. مصمصت شفتيها وظلت أظافرها الحمر مطوقة بيوضة الكأس.

— نوّرتِ المكان!

— شكرا.. شكرا.. للأسف أنه غير مناسب وإلاّ لكنت..

— لا، لا! ما سمعناه دليل نبوغ وزيادة

— لو كنتِ التقيت بأحد الأصدقاء، يعزف ويلحن..

— الله! أين هو.. ألا يمكن أن نجلس معه الليلة.. أريد أن أغني وهذا المكان لا يليق.. البيت أحسن

— لكن أين تنزلين الآن؟. حتى إذا ما تدبّرنا – قاطعته:

— عند صديقتين تعملان معي.. لم أقل لكما أنني موظفة هنا... أقصد في الناحية، بهذه القرية الشرقية.. ولكنني أفكر في الذهاب إلى الفندق، الكبير ذاك... أنتما تعرفان علاقة الفن بالحرية!.

— طبعا.. طبعا.. هذا أمر مفروغ منه.. لا عليك، إذا لم نتمكن الليلة.. نودّ ألاّ تحرمينا من..

— لا، حاشا.. أنا أتردد على هذا المكان بالضبط خمس مرات في الأسبوع.. ومساءُ السبت يبدأ عندي مع الفجر.. وقت ما تشاءان.. ولا حدود لي.

فتحت كيس البلاستيك بطريقة مسرحية وأخرجت علبة أقراص. ابتلعت قرصين. نادت على النادل وطلبت فطيرة بالقشدة والفاكهة.. وسألتهما إن أرادا أن يتناولا شيئا إضافيا.. شكراها مكتفيَّيْن ولاذا بالصمت..

بين الكراسي حامت جماعات من فتيان يضعون أوراق برامج ونداءات ووجوه مرشحي انتخابات 14 نوفمبر، على الموائد، بين الكؤوس وعلى المرمدات.. يبادلون الزبناء نظرات تؤكد استرزاقهم وحيادهم التام.. حتى مع الوجوه المطبوعة على الأوراق التي يوزعون..

- إيه.. بالمناسبة ما ر أيك فيما يجري حول هـذه الانتخابات و..

- لا يعنيني ذلك..

- لكن، هذه انتخابات مصيرية في تاريخ البلاد ولابد من..

- أنا موهوبة للفن فقط.. قالتها بزهو وعيناها البيضاوان ترقصان في الهواء وملأ صوتها فمه الفاغر.. "أيظنّ.. دَرَنْ، دَنْ دنْ.. أني لعبة في يديه.. أنا لا أفكر في الرجوع إليه.."، وهي لا تبالي بالحركة السائدة على الرصيف، بالنادل وبالعالم، تتابع ما وُهبتْ له، وهي تفتح المذكرة على صفحة معينة وتضعها أمامهما ناقرة على وجه الصفحة بسبابتها مرات عديدة وبإشارة من عينيها فهما أن عليهما أن يقرءا اعترافات وخواطر عن سنوات مراهقتها - بالفرنسية. أنها كانت متيّمة بمدرس لم يدرك ذلك إلى الآن، ثم بحارس عام بعده، ومعاً لم يفهما ما فيها من نبل، مثل المعيد الذي دأب على نصحها، ليتحول الغرام إلى صداقة. علاقتها بالناس الآن، بزملاء العمل.. الأحلام التي تكبر في غربتها ــــ مثل بطلة "بقايا امرأة". أنها كائن غامض متوحش.. لا يلويها شيء عما هي فيه سوى المطالعة المستمرة والغناء.. على شكل مقاطع قصيرة، مثبتة بالمداد والرصاص وسط عناوين وأرقام هواتف عديدة. طوت رجلها اليسرى، أبانت عن ساق مشروخة أسفل الركبة وغرز عديدة على العظم والعقب.. كانت الغرز ما تزال بادية.. والعقب منتفخ بطريقة مثيرة..

عادت من الداخل بعد مدة.. أحمر الشفاه يصرخ في وجهها وخطوطُ قلم الكحل حول عينيها. جمعت أشياءها المتناثرة على المائدة، كالمأمورة.. وبقيت عيونهما عالقة بها وبحركاتها بين الاستفهام والاستغراب..

- سأروح أنا..

تشابكت الأيادي. ضاعت في زحمة الشارع والعيون.. مكثا كما في فراغ غير منتظر. تبادلا أسئلة لم يبحثا لها عن جواب معين.. لما أُلْتفتا باتجاهها كانت خطواتها توقع الوشم الشبيه بلحن على الماء.. العابر في مكان شامخ في نسيان من عبروه.. وما يزالون..

غرقا فيما يجري حولهما.. حينا بعد حين.. نادى أحدهما على النادل، نفَحَه الورقة النقدية والبقية...

- مايزال عصير وفطيرة!.. دفعا الفرق وهما يبتسمان للشماتة.. وكان الشارع يعيد محاكاة الخطو للخطو ويضاعف النسيان.. علا الظل السطوح تماماً، وكومات التراب تقفز من الرصيف وتحاصر الجميع عابرة إلى حيث هاجرت طيور السنونو..

في دغل الشارع، الوحيد دائما، كما وصفناه في البداية.. اقتنيا جرائدَ مسائيةَ الوصولِ.. تحدثا وصمتا وتحدثا.. وفي مقهى من مقاهي الطرف الآخر من المدينة حيث ينتشر الرصيف أضعافا مضاعفة، كانت هناك.. البلاستيك على المائدة، فطيرة القشدة والفرولة.. وكأس عصير بالحليب.. وآذان أخرى تسمع للغناء الذي راح يفتت بداية الليل ويهز الجوارح الخبيئة..

نظرا إليها كأنما عثرا على شيء عزيز ضيّعاه وتابعا الطريق..

... ...

ويحل مساء بعيد.. ثم تخلو الأحياء المتربة فيطيب السمر المفتعل البئيس بعد غروب خبا النهار فيه...

ساعات من سيرة ذاتية لمدينة ... شاردة

إنني قلت للدّود

أن يشتهي

فآشتهى جثتي الباردة!

مجيد الموسوي

(قصيدة مقترحة إلى محمود البريكان)

23 يناير...

أنا الآن أصدّق أن القوس ارتخى تماماً. لم يطلق سهماً. ارتخى فحسب.

لذا يحسن، مادام الأمر استأصل كل حياة، أن أغطي رأسي وأتركني أنساق إلى حيث أدري:

"الزمن سنبلة والثواني جراد".

أشياء مّا شبيهة بالأصوات تتوالى وتتبادل المواقع، إنسانية أو قريبة من ذلك.. هدير مخلوقات معجونة بآلات تتناهى إلى سمعي في صمت هذا الليل.. كأنها صادرة عن كائنات ثكلى تنوح غارقة في قعر دهليز بارد وموحش وبطين، أو وراء متاريس عالية وسميكة الحُثّ.. ترتج أرهفُ خيوط أعصابي لهذا التناهي، ومن الأقاصي يستقر النواح على جفنيٍّ، يحط عليهما آثاره الرهيفة كالرمش.

تهتز الأهداب إلى سماع الصوت القوي المباغت، صوت غيطة السحور الخرافية على المنارة مشدوداً إلى سماء عارية، قبل الفجر، مسافراً من قنة المنارة إلى كل خلايا القبور والبيوت المخدَّرة بعسر

الهضم أو كسل المزاج أو حمّى الزكام الغريب. وأنا أتحسّس فيّ هذا الوهن تيقّنت نهائيا من أن الأصوات التي اقتربتُ بالكادّ من معرفة طبيعتها، قد تشتتتْ وآبت إلى مصدرها القصي كأنما أربكها هذا المباغت فوَجلَتْ.

الصوت حاد في الأفق منّي والعمود، ينضفر إيقاعه في لازمات ثلاث: واحدة معتدلة البطء، ضاربة في الزمن، تليدة، كأنها فسيفساءُ خلفيةِ ذاكرةٍ شبيهة بدهان حائط رطب يتآكل (على الجسم المقضوم بالنوم، أن يَدفع الغطاء وأن يتمطط ما شاء). يطيل النفخُ صوتَه ويحسن التخلص إلى لازمة ثانية أعجل، هي الجسم الممدود بين الرأس والذيل على الخلفية الأولى، تدركه الأذن وتحصي عليه طرافة العمر، كأن الصوت يحدس انقضاءَ دقائق التمطط وجمع العضلات بين نوم مزلزل ويقظة هشة.. فيطول ويرتخي — يُبعث من تاريخ طُعمِ الزواحف واستسلامها الرخو من ثقوب الأرض الحامية وينفض رميمَ مديدات المصارين الجوعانة والمنتفخة للخروج من ترويها المستغرق ونشرها في قلب الليلِ للتزوّد بقطرة شيء مّا قبل عبور نهار عما قريب سيلوح.. توقد نارٌ ويُشعل فرن وتزهر أنوار في نوافذ دوماً تنأى عن قبضة العيون؛ يطول الصوت أقصى من نفير المخيمات والثكنات— عسكر الليل وخاملو الصباحات البنفسجية النور، أنتم. بالكادّ يُسمعِ النفّارُ حزينا ومَلحًا يصلصل — بعد فعل الآلة الحادة — صوتَ العراقة المثقوب كذكرى حرب بعيدة (مات "باصالح" المسكين!)، يدور ثقيل الحمل في سائر جهاتي، يغرق في جيولوجية الزمن المترسبة، له نشوؤه وارتقاؤه: من جرّ الأقدام، والدراجة الهوائية إلى النارية... وثالثة متمهّلة — تنصتّوا لذلك — هي اللون الناصع فوق الخلفية على الحائط الرطب المتآكل، تذكر بإيقاعها الموازي لما بعد الأكل، أن لقاء "الفطرة" سيكونَ لا محالة في أواخر الشهر. لكن من يستفيق الآن لتعود لأذنيّ لذة طقطقات حطب السحور وحرارة الفرّاح على السطح العَاري؟ يا الله... لكن ماذا بقي؟

... ثم ساعات خلوت فيها لنفسي. تتأمل الحيطان ما فيها من ملاط وحجر وإسمنت وكيمياء: كل ذلك الجيش الأخطبوطي الذي يزحف على طول زنقة الحنصالي وأرفدته (الكركور، الغديرة، الحطّابة، الهرية، الحناجرة..)، مكوكَباً متداخلا يسيل إلى الأقبية المخفية عن عيون حرّاس النهار، محمولا كالقش يتقاذفه الهضم وطابور الصيدلية والجسد الجهنميٌ العطرِ الطائشُ النظرات.. كله، يسير إلى ملاقاة يوم آخر، يستبطئ الفجر المَقبل ويستغفله لآستراق اللذة من هذا المساء.. كذلك تعدّون الأيام المتواترة التشابه، تشعلون الأيام المبلولة والخطو الحريف: كل هذا الجيش يسير، المهم أنه يسير، لينزل وينزل وينزل.. إلى أن يترسب في الشارع المستوي عند القباضة والبريد، لابأس، هناك سنترك جميعا الكلمات تشقشق والعيون تخضر كفراشات استوائية؛ لابأس، لتبدأ المطاردة ولْيَلُحْ أفق عارم بالوعد حتى لا يعود الواحد والواحدة منكم كما خرجا؛ لنطرد غاز الأمعاء وحامضها وليجر الدم في الأعراق الناشفة، وليكبر الموعد الساخن في الجيوب للآتي من المساءات!

ها قد انتهت فترة كمد شريط الانتخابات الشبيه بالحمّى التّيفيّة (تخرجون منها هيكلا لا تتعرفون إلى أنفسكم)؛ منها هذا الدخان الذي ينتف العيون كحبات التوت الطرية — أهذي وسط طيكوك لا يتوقف، أنه لا يمكن أن تصير هذه الزنقة الداخلية سياجا لمدينة "قديمة"، تصان؛ وأن تُحوّل "غرفة الصناعة التقليدية" إلى رواق للفنون؛ وأن يُقام مركّب ثقافي عند الأشجار المقصوصة هناك بحكمة مجهولة؛ خزانات وظلال كتب وارفة ولا محدودة، أدراج شاسعة هذه المرة للموسيقى؛ مسارح فخمة وعشرات الدور للشباب والشيوخ، حيث يتيه فلان وعلان وتتيهون ولا تعودون: واسعة كالجنة؛ حدائق لمواعيد النهار والليل تكبر فيها حتى الكراهية والرياء والحروب والاستعدادات للمزيد من الحروب، كتلك التي عرّت شِدتّها

جلدَ الطرقات المتورم بالجذري.. كلها تنفخ على حزام النفايات والخراء وتستوي طريقا ساحليا على طول جذر الساقية.. إلى المنبع، تتخلله صحارٍ ومفازات تُجرّي الصغارَ كالأيائل والأفاعي والعقارب؛ ومقاهي، آه! مقاهي ثانية وثالثة للأُسَر المستخفية وللمتعبين ولمن شاء أن يقتسم عروض الخليل ومعجم المحيط أو يأكل مجلدات الأغاني ودوائر المعارف ولم يجد سوى أمكنة أزهرت فيها بالحديد لوائح الخيل والطوطو واللوطو والأعداء الحبّوبين ووكلاء البناء وعلماء الدّاما وخبراء الورق وكذا أشياء.. ولا يبقى الشجر.. أتعرّى ككفٍّ مبسوطة للهباء، محروقة الأبواب والأفاريز ومقيَّحةَ الجدران شاحبةً أجرجر آخر نتافات السراب اللزجة وخاتمة دروس الكراهية المشتهاة على نارٍ مهيلة.

على ضلع من ساحة "الحرية" تُخرِج المأسورات بالعوز أطباق رزز القاضي المشعّرة والبغرير والفطائر المنحّفة والرقاق بالزيت والسمن والشحم (الخير عميم!)، ثم تتسطّرن مسربا كالفئران عند الأقواس التي يلحسها الضجر، رافلات وراء مناديل الموائد والأطباق المدوّرة التي شاءت أن تكون بيضاء فاقتربت من لون البندق. أسراب السيارات والصفّارات والعربات والنداءات والمنبّهات؛ وجود بطالة مقنّع، تملؤه الوجوه الشاهدة باختلافها على عظمة الخلق وبتشابهها على قوة الزمن.. تسري فيما تبقّى من النهار بانتظار التصريح بالأكل وغور الأصابع والأضراس والعيون في الموائد وانهماكها على تمزيق ما رتّبته ونسّقته الشهوة المعلّقة بالجوع مشهداً بهيا، في صمت مكتنف بالمضغ والبلع وصوت الشرب والهمهمات والتنفس السريع، وبعد حينٍ بدخّان السجائر. لا يمكن التفكير في القمر أو في بيت لنزار قباني أو فيما يجري أو لا يجري، لا يمكن طبعا ـ...ـ، تشتغل الشفاه كأنها مستأصلة من جسد يضمحل ويتعب فيما يطحن ويسحق، وتشرد العيون وتتسع مرتطمة على زجاج تلفزة تصير امتداداً لجسدٍ مبتور

الأنف والأذنين، معلق كطحالٍ حيّ يرتج طربا على حائط، أو يسيل كطخال... ستغنّي الرأسُ فيما بعد..

لا يبقى إلاّ أثر التخريب: ما لا يباع: ما يفعله هؤلاء خلال الأيام العادية: نصب الفخاخ العريقة.

ما أوسع النهار لكل ضروب التعلّل!

يضيق شارع باب مرّاكش بالأحذية البلدية الذوق والمهربات من الأواني وممسحات الأرجل والكؤوس الموضوعة عند حافة العربات لاصطياد مكسِّرها وغارمها والمناديل والأحزمة والفواكه المغرية كالتوت والأنبجة والبطيخ والعنب المسكّر والكيوي وعربات الصراخ وكومات الأبخرة وسجق اللانش والربلات النحيفة كالمقانق والصدور المستغيثة المبحوحة والشّعر الصادي المدفون والحنوط والحافظات وسراويل الصوف الملونة ورائحة العنّات وكومات الجماجم المخرومة الأفكاك وأشرطة النصح وبقايا الانتخابات وأرطال الخلوف وتذاكر يانصيب القرف وأقراص الإنجاب السريع وقوارير الضيق الأصفر ومعلبات اليأس والكوابيس وتقوُّضِ الأحشاء وتوارث العاهات والخوف والضنك الأسود وذباب الحزقة الهندي عَاونُوا هادْ المسكين أخوكم آلبْناتْ الدجاج ثلثماية شي گارّو آلْخَوا الله يصلح على الله الله يْساهَل شْكونْ إيسيري مزيانْ النهار طْوال بَلاك شوف قدّامك... ولابد من نهار عري لهذا النسل وأزمنة جفاء أبرد حدّ الاشفاق تُشرب على الريق ولم تَنته فترةُ الكمد وكل هذا يتفتّق على الإسفلت والأرصفة.. فسبحانه ـ له الرجعى ـ أين الجحور الآوية لكل هذا الخلق؟

ها قد ضيّعنا معاً نهارا آخر في تمارين التفرج على الوجع ومقاس التجلّد.. لكنه يفيد في أمراض القرحة ويقوي المعدة ويقاوم الشيخوخة وسرطان هذا "النينْيو" الجارف يوميا كوادٍ حارّ خاثر، يقلب ملامح

الطقس والاقتصاد والفكر، أين منه الجراد والقحط والحرائق والطوفان.
لازال كمد الفترة ونتائجها لم ينته، الأنشطة المكثّفة لأنواع الأدخنة الملوّثة وقرارات الأوكسيدات المسخّنة للجو التي تزيد من عفونة واختناق الأرض لعدم قدرتها على امتصاص غضب وغيظ الغازات الدفينة التي تفوق قدرة هؤلاء المؤتمرين في "كيوطو" البلاد الذين ناقشوا ولم يتحدثوا عن الانحباس الحراري الخطير الذي يحصل مع نهاية القرن... من الماء إلى الماء. وحسب خبراء الأنواء سيضرب هذا النّينيو البعض وسيحل ضيفا عند البعض الآخر، وسترتفع تكاليف المعيشة، سيغتني به البعض وسيعدم به البعض الكثير، ستنمو شركات أخرى وأحزاب أخرى ورهوط أخرى للكسب، تسوّق أدوات غريبة لمواجهة إعصار العنف، كالأكياس الرملية وأدوات إصلاح السقوف وسد الشقوق والثغور، وشركات أخرى و... لإسعاف الناس بالمنوّمات عبر الهواء حسب توقعات الخبراء، وستُفتح مستشفيات للانتحار الجماعي ولغسل الدماغ حتى يعفى الناس من همّ التفكير، وسيتكاثر أطباء يجوبون أروقة الصمت وأديْرة الشرود والتسرنم، إلى أن يطيع الجسدُ ويتشكل على آلاف الأنحاء رَخِيّاً كمعجون الأسنان.

ما ضاع يوم وراءه يوم شبيه.

تتأخرجرائد، تغيب أخرى، تتجرد الأرض من نبتة الثقافة الساحرة، ومن أراد أن يربح فالعام طويل: الدنيا هانيهْ،

بني ملال

خريف 94 ـ شتاء 98.

الدنيا هانية

في هذه النصوصر القصص التي يفاجئنا بها الرسام حسان بورقية، نفحات عطر ربيعي منعشة. ليس فقط لأن علاقة الفنان باللغة هي علاقة ذات خصوصية وامتدادات، ولكن لأن بورقية قد متح من مُعاشرته للنصوص الفلسفية ذات الإبداعية الواضحة -خاصة عند نيتشه- ومن قراءاته المتنوعة التي تَنْضاف إلى تجربته وحساسيته لتؤَثث فضاءات هذه النصوص المثيرة والمُوحية. . .

. . . هناك ثلاث قصص تستوحي وضعية المرأة المؤسية : «بقايا امرأة»، «رغوة الأرصفة»، «الدنيا هانية». ثلاث فتيات مختلفات ولكنهن بمثابة تنويع على نفس الثيمة التي تتصل بالوضعية المزرية التي تواجه المرأة في مجتمعنا وهي تحاول أن تعيش وسط تحوُّل بنيات العائلة، وتفاقم البطالة والعزوبية واستمرار سيطرة الذكور المشيَّئين للمرأة. وأظن أن «بقايا امرأة» قصة ذات نكهة خاصة لأنها ترصد صورة المرأة من منظور جريء وغير مألوف. فالأمر يتعلق بفتاة تعيش في دار كبيرة، وعندما تتغيّب أُمها يتضاعف خوفها وشعورها بالوحدة، فتتصل بصديق لها لأن حضوره يسعفها على تبديد السأم والأرق. ومن خلال الحديث بينهما، يتبين أن الفتاة تحلم بأن تصبح راقصة ولكنها عاجزة عن تحقيق حلمها، ولذلك تلجأ إلى الأغاني وإلى الكحول والحشيش ؛ وفي غمرة التجربة، تتعلق بامرأة تحبُّها وتحرك الساكن بأعماقها، فلا يعود الرجال يعنون شيئاً لديْها. إلاّ أن أمها تريدها أن تتزوج لتُنجب خلفاً. . وهي حائرة، خائفة وحلمها مُؤجل، والأرق مقيم، وواقع كئيب يلفّ كل شيء ويبدو أقوى من كل شيء. . .

إن هذه القصص تكشف عن موهبة كاتب له حساسية متميزة قادرة على أن تَعجن اليوميّ المألوف بالتخييل المخصب المعتمد على الملاحظة والتأمل والنصوص الغائبة، وبذلك يُعطى لـ«الرسم بالكلمات» معناه الحقيقي، لأنه صادر عن مُبدع يمتح من المعينَيْن ويكابد التجربتيْن. ومن ثمَّ يذوب الخاص والمحلي بنفحاتِ الألم الإنساني الآسر رغم وطأته.

ISBN 9981-25-142-9



لوحة الغلاف للفنان
حسان بورقية